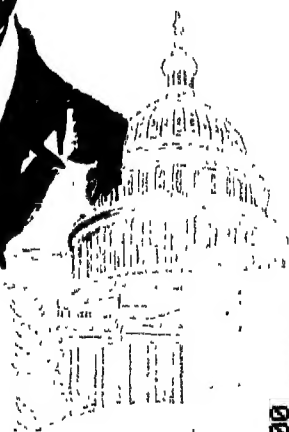


# إيڤ لكارلسن

## من الكوخ الى البيت الأبيض





٩٩٨٩

# ايب لنگولن

من الكوخ الى البيت الابيض

المجلة العامة لكتبة الاسكندرية
رقم المجلد : ٩٧٣٠٧
ن ٩
رقم التسجيل : ٥٨٤٤

تأليف ستيفن لونغ

ترجمة احمد كمال

الناشر  
عكا المراكبي

٣٨ شارع عبدالخالق ثروت - ت ١٤٥١  
القاهرة



## محتويات الكتاب

### صفحة

٥	الفصل الأول : طفل نانسي
١٥	الفصل الثاني : الخيم المؤقت
٢٥	الفصل الثالث : الأم الجديدة
٣١	الفصل الرابع : التعليم على الحدود
٤٥	الفصل الخامس : المقر بالقرب من نهر الميسيسيبي
٥٧	الفصل السادس : حدود إلينوى
٦٩	الفصل السابع : قرية « نيو سالم » وحرب المقر الأسود
٨١	الفصل الثامن : صاحب المهن المختلفة
٩٥	الفصل التاسع : الأيام الأولى في مير نيفيلد
١٠٩	الفصل العاشر : عضو الكونجرس ومحام
١٢٥	الفصل الحادى عشر: بيت منقسم
١٤٣	الفصل الثانى عشر: لا حقد نحو أحد

**ABE LINCOLN : LOG CABIN TO WHITE HOUSE**

**BY**

**STERLING NORTH**

**Published by Random House, New York**

**© Copyright 1956 by Sterling North**

الفِئْلُ الْأَوَّلُ  
طِفْلٌ ثَانِيٌّ





« من الممكن تلخيص قصة حياتي في جملة واحدة ، وهذه الجملة هي :  
في مرتبة توماس جراي ( التاريخ القصير والبسيط للقبر ) . . . »

أبراهام لنكولن

أسرع دنيس هانكس الذي كان في التاسعة من عمره في الطريق المؤدى  
إلى كوخ لنكولن قافزاً فوق مستنقعات المياه التي تكسر فوقها الثلج  
ومتخطياً الأخاديد المتجمدة ، وسار حذاء الطريق المتعرج الذي يخترق التلال  
التي تحد « نولين كريك » .

كان ذلك يوم الأحد ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، يوم يجب أن تظل ذكراه  
مخلدة في التاريخ الأمريكي . وفي صباح ذلك الشتاء البارد لم يكن دنيس يهتم  
بشيء إلا أنه ولد لتوم ونانسي هانكس طفل أسماه أبراهام .

وكثيراً ما جاء توم في هذا الطريق لزيارة عائلة لنكولن إذ أنه ونانسي  
كانا ابني عم ، وكانا قد نشأ معاً في حضنة خالتهما وخالهما توم ويتس سبارو .  
فلا عجب لذلك إذا أرادت عائلة لنكولن أن تكون عائلة سبارو . أول من  
يرى الطفل .

وكان الدخان الأزرق يتصاعد من مدخنة كوخ لسكون عند ما دخل دنيس مندفعاً إلى الفسحة، وذيل قبعته المصنوعة من جلد الراكون يتطاير خلفه في الهواء... وتعجب دنيس كيف سيكون شكل «إرب» الطفل. وبالرغم من أن دنيس لم يكن يهتم كثيراً بالأطفال إلا أن طفل نانسي كان حدثاً غير عادي.

وما أن رفع دنيس سقطة الباب ودلف إلى الغرفة الوحيدة في الكوخ المضاعة بلهب النيران حتى رأى الطفل لأول مرة راقداً إلى جوار أمه نانسي التي لم تفارق البسمة وجهها رغم تعبها، ذلك الطفل الذي سوف يصبح يوماً ما أحب رئيس لأمريكا.

وبعد ستين كثيرة، عند ما أصبح دنيس هانكس رجلاً مستأً كان يحب أن يروي ما حدث في ذلك الصباح البارد — وربما أضاف في حديثه إلى الحقائق بعضاً من تخيلاته كما يفعل دائماً الرجال الكبار في السن. ولكن مستمعيه لم ينسوا أبداً القصة كما حكاها لهم: «كانت نانسي راقدة في السرير تبدو على وجهها السعادة. وأشعل قوم ناراً وغطى نانسي وطفلها بجلده دب اللدغتهما».

وكانت تنسى سياروتحوم في البيت، تقوم بعمل ما يمكن أن تفعله امرأة لأم وطفلها فقد «حمت إرب الصغير والبسته ثيابه الداخلية والخارجية، وطبخت بعضاً من الثورت الجفاف مع عسل النحل وغسلت الأواني».

ولمحت نانسي لدنيس أن يحمل الطفل الذي كان وجهه في لون السكر الزاخر، ولكن دنيس بعد ذلك بدقائق أعطى الطفل الباكي إلى عمته يتسنى قائلًا «خذي يا عني فإنه لن يصبح شيئاً يذكر»..

وكان يمكن لنبوغة دنيش أن تتحقق لأن أفراد عائلتي لسكون وهانسكن كانوا اقرباء . ولا يمكنهم أن يتصوروا أن هذا الطفل سيكون يوماً ما شخصاً عظيماً ومشهوراً .

وأما مضي إبت الطفل سنته الأولى في المهمل لا يحتاج إلا إلى الطعام والدفء والحب . ولم يكن يرى من مهده غير ضوء النيران ، وعجلة المغزل تدور ووجه أمه الحنون فوقه ، وربما رأس والده ، توم ، لتسكون ذا الشعر المشعث والوجه المسكود حينما كان يأخذ بندقة الصيد من مكانها فوق المدفأة وغالباً ما كان يرى وجه أخته ساره التي كانت تبلغ من العمر عامين والتي كانت تنظر إليه بحنان . وتهر مهده . وتضحك عالياً عندما كان إيب يتسهم . ويتسامل دائماً متى يكبر إيب حتى يمكنها أن تلعب معه وتجادله .

وفي السنة الثانية من عمره كان إيب يمشى بقدر استطاعته معتمداً على يد أخته . ولا بد أنه قد زار نبع الماء الصافي الذي كان مأوّه البللوري يخرج من كهف صغير جارياً بين الأحجار الصغيرة المغطاة بالطحالب ، متسرباً في الأرض إلى المجهول محدثاً صواتاً موسيقياً رخيماً .

وعندما أهدرك أبراهام لسكون ، مدارج الرجولة لم يكن يتذكر أي شيء . لا عن مزرعة التبع المحتفى ، ولا عن مكان ميلاده في جنوب فورك بمقاطعة نولين كريك بجوار هورجنفيل . كانت أولى ذكرياته عن مزرعة أخرى . كانوا قد رحلوا إليها عندما كان عمره عامين ، لا تبعد كثيراً عن المزرعة التي ولد فيها . وبني توم لسكون كوخه الخشبي هذه المرة في وادي نوب كريك الخصب والتحت ظلال تل ولدزوه ، ولكن دنيش هانسكن تذكر أنه لم يمض وقت طويل حتى أصبح إيب يلعب مردياً خذاه من جلد الغزال ، وينطوئاً طويلاً وقصاً من السكتان وقبة من جلد الراكون ، ويذكر أيضاً أن إيب لم

يتعيب أمه منذ تعلم المشي إلا أن تحفظ بملابسه عليه . ويذكر أيضاً أنهما  
كثيراً ما كانا يخرجان حفنة الأقدام . وأشد ما كان يحبه لربي أن يخرج مع  
دينس وأبيه والكلاب في صيد الراكون وفي تتبع النحل للعشور على خيلاه .  
وكانت هذه حياة مثيرة لطفل مثله ، كاد أن يفقد حياته يوماً ما في أحد  
مخاطرنا . وكان لرب لسكون أيضاً يتذكر هذه الأيام إذ كانت أولى ذكرياته  
عن نوب كريك وعن مزرعتهم التي كانت تتكون من ثلاثة حقول في الوادي  
تحيط بها التلال العالية والوديان العميقة . ولا ينسى يوم السبت الذي زرع  
فيه الأولاد القمح في الحقل الكبير الذي كانت مساحته حوالي سبعة أفدنة ،  
ويذكر هو بذور القمح يذرتين في كل صف . وفي صباح الأحد هطلت الأمطار  
كثيراً على التلال ولم تسقط قطرة مطر واحدة في الوادي ، ونزل سيل الماء  
من التلال على الحقل ومسحه ولم يبق فيه أى شيء . وفي هذا السيل كاد لرب  
أن يغرق لولا أن مدله صديقه أوستن جولاهير الذي كان قريباً منه . لحسن  
الحظ ، غرس شجرة تعلق به لرب فأنقذه .

واكتسب لرب خبرته ومعلوماته عن العالم الخارجي الواسع في مزرعة  
نوب كريك حيث كانت تمر أمام باب كوخه القوافل الآتية من كبرلاند وبها  
مسافرون من كل نوع وبها متجولون ورواد يبحثون عن الأراضي الجديدة  
وعبيد عقيدون بالسلاسل . ويذكر أنه أعطى مرة بمكة كانوا قد اصطادوها  
إلى أحد العساكر المسرحين من حرب ١٨١٢ ، وكان دائماً يرى ويسمع أشياء  
كثيرة ، وبالرغم من شقاوته وسنه الصغير إلا أنه كان محباً للبفرقة .

و ذات يوم جاء إلى تلك المقاطعة مدرس يدعى زكريا زابني ابتداء يعلم في  
كوخ خشبي قديم حيث كان التعليم بطريقة القراءة بصوت عال . وهكذا  
اكتسب لرب عادة القراءة لنفسه بصوت عال طوال سبب حياته .



أما توماس لنسكولن فلم يكن يحب العلم . وكتب أبراهام عن والده أنه كان عاملاً متجولاً نشأ بدون أن ينال أى قسط من التعليم ، يكاد يحط اسمه بصعوبة بالغة . كان صائداً ماهراً ونجاراً ، و عاملاً مجدداً ومحدثاً بارعاً .

وبالرغم من جهل و فقر عائلة نانسي ، كان كثيرون يذكرون أن نانسي هانكس لنسكولن كانت امرأة ذات رقة بالغة وذكاه فطرى غلاب . وكان البعض يرجح أنها تستطيع أن تقرأ وتكتب . ولم يكن من المشكوك فيه أن هذه الأم المحبة لأبراهام وسارة أصرت أن ينال ولداها قسطاً من التعليم ولو لبضعة أشهر .

وفي خلال سنة ١٨١٦ لاحظت نانسي أن زوجها توماس لنسكولن أصبح قلقاً وكاد أن يفقد أرضه مرة أخرى لأن رجلاً آخرين طالبوا بأحقيتهم فيها . وكان من الصعب جداً على ميزان عاقل لا يملك عييداً يعملون عنده أن يستمر في العمل في مقاطعة تعترف بالرق . لذلك تناقش توماس مع زوجته في أن يذهبا إلى شمال نهر أوهايو حيث توجد أرض خصبة واسعة لا يقطعها أحد حيث يمكن أن يبدأ هناك من جديد .

ويمكننا أن نخمن الأفكار التي راودت نانسي لنسكولن حين ذهب زوجها وحيداً ليكتشف الأرض الجديدة ، ذلك الرجل الذي غير مجرى حياته ثلاث مرات خلال السنوات العشر من حياته الزوجية ، فهل يمكن له الآن أن يستقر ويرضى ؟ وكان ذلك العام أبرد عام مر على تلك البقاع حتى إن الرواد أسموه عام « الف وثلاثمائة والتجمد حتى الموت » . ولم يتمكن نوم من العودة من إنديانا إلى منزله إلا في أواخر الخريف بعد أن ينقضى الشتاء ، وكان على نانسي أن تقضى هذا الشتاء المخيف وحيدة مع ولديها . وكثيراً ما كانت تبكي وهي وحيدة في ظلام كوخها ، إلا من صرير الرياح تسلسل مصفرة من المدخنة .

ولكن أى انتقال جديد بالنسبة إلى إرب كان بمثابة مغامرة مثيرة وهو الذى كثيراً ما كان يتسلق السفح الممتد خلف الكوخ، ينظر فى اتجاه أنديانا الممتدة أميالا بعيدة نحو الشمال والتي كان إسمها يثير فى مخيلته صور الهنود الحمر، وهو بالطبع لن يخاف الدببة التى تكثر هناك لأنه بعد قليل سوف يبلغ الثامنة من عمره وسيكون فى استطاعته حمل البندقية أو استعمال البلطة كأى رجل بالغ .

وكان إرب يظلل عينيه يديه من شمس أكتوبر ويتعجب هل ذلك الخط الأزرق الذى يراه بعيداً جداً نحو الشمال هو جزء من السماء أم هو نهر أو هايو العظيم الذى تمتد على شواطئه أرض إنديانا الموعودة ؟





# الفصل الثاني المخيم المؤقت



« وصلنا إلى بيتنا الجديد في نفس الوقت الذي انضمت فيه لإنديانا إلى الاتحاد الأمريكي . وهناك نشأت المقاتلة البرية التي تملأ في غاباتها الدبية والحيزانات التوحشة »

أبراهام لنكولن

ولما عاد توم لنكولن من رحلته الاستكشافية في نوفمبر، قال لنانسي وللأولاد إنه قد استطاع مزرعة تبلغ مساحتها حوالي ١٦٠ فداناً بجوار « بيجون كريك » تبعد بضعة أميال شمال نهر أوهايو ، وطبعاً أخبرهم عن الأرض الخصبة وعن الغزلان والديكة الرومية البرية التي تكثر هناك . ولكنه ربما نسي أن يخبرهم أن أقرب مكان به ماء صالح للشرب هو نبع ليس بالقرب من المزرعة ، وأن الغابة مليئة بالذئبة والثنايب والثعالب والقطط المتوحشة ، وأن المستنقعات القريبة من هناك تنشر الملاريا في كل مكان .

وبالرغم من أن حكومة إنديانا المحلية كانت تعطي فرصاً جيدة لتمليك الأرض أكثر من حكومة كنتاكي .. وأن الأرض هناك كانت أكثر خصوبة ، إلا أن أباً مثل توم لنكولن قد أصابه القلق لأن ينتقل مع امرأته وأولاده في مثل هذا الشتاء القارص إلى الأرض الجديدة حيث لا يوجد حتى كوخ يأويهم ويقومهم شر تقلبات الجو . وليس لدينا أي مصدر موثوق به يحكي لنا قصة انتقالهم الجديدة إلا حديث شاهد البعير الوحيد ديفيس هالكس .. قال :

« جمعت نانسي كل الخرق التي يمكنها استعمالها فيما بعد في كيس مصنوع من التيل ووضعها أنا على ظهر الحصان بينما حمل إيب بندقيته .. أما توم فقد ترك وراءه أعمدة السرير والكراسي والموائد الخشبية الصغيرة لأنه كان أسهل له أن يصنع غيرها من جديد بدلا من أن يتحمل مشقة أخذها معه » .

وبعد يومين من الترحال وصلت عائلة لنكون إلى الضفة الجنوبية من نهر أوهايو العظيم ، ومن تلك البقعة الجميلة عبروا إلى الضفة الأخرى للنهر الواسع ، حيث نزلوا في مزرعة رجل اسمه بوسي .. ومن هناك واصلت العائلة رحلتها المضنية خلال الغابة التي لم تطأها أقدام أحد من قبل إلا نادرا في طريق ضيق لمسافة ستة عشرة ميلا .. ووجههم المزرعة الجديدة .

وفي الطريق الذي كالخوا خلاله إلى هدفهم كانت أشجار الغابة ما زالت تحمل بقايا أوراق الخريف ، وشجر الجوز والزان يتألق تحت أشعة الشمس الذهبية ، وشجر الاسفندان في لونه القرمزي يهر النظر . وترك شجر الجوز ثماره تنساقط وتغطي أرض الغابة .. وبهرهم منظر شجر البلوط في استمراره الضارب إلى الحمرة ، والجنيز المخموس في الضوء الخافت على امتداد كل جدول قابلوه . وفي كل مكان بين أشجار الجوز والصفصاف والدردار انتشرت شجيرات العنب ، تاركة عناقيدها البكر القرمزية تتدلى من بين الأوراق الصفراء . وهناك وقبل أن تطأ قدم إنسان تلك البقعة البكر ، تمت الأشجار الضخمة كأنها الأبراج العظيمة .. تمتد على طول مرمى البصر .. تملأ الأفق البعيد .. ونهاكها العالم الذي يمكنهم تخيله .

وفي مجاهل هذه الغابة ، لم يظن أثر لأبى هندي من الأعداء حيث أن قبائل الهنود الحمر لم تكن تعيش عام ١٨١٦ في إنديانا الجنوبية . وعلى الرغم من ذلك فإن إيب الصغير احتفظ ببارود بندقيته جافاً حينما كانوا يعبرون نهر أوهايو وأهمهم بمراقبة الطريق مراقبة دقيقة أثناء ترحالهم خلال الغابة لأنه لم يكن لينسى أنه سمي باسم جده الذي قتله الهنود الحمر في كنتاكي . وكثيراً ما سمع إيب قصة مقتل جده يقصها عليه والده ، تلك القصة التي استعادتها أذكرته في جو الغابة التي ملأها عواء الذئاب الآتي من بعيد . « لقد كان أبراهام لنكولن الكبير جد إيب صديقاً لداينال بون وكان قد انتقل مع زوجته وأولاده الثلاثة وابنتيه من فرجينيا عبر الجبال واستقر في كنتاكي عام ١٧٨٢ حيث سجل باسمه قطعة أرض تبلغ مساحتها ألفي فدان في بلاد النهر الأخضر .

وفي أحد أيام مايو ١٧٨٦ عندما كان جد إيب وأولاده يعملون في الحقل ، انطلقت رصاصة من أكمة قريبة سقط أبراهام بعدها على الأرض ومات بعد دقائق قليلة ، وبينما هرع أخواتوم لطلب النجدة ، بقى هو إلى جوار جثة والده ، وهو الذي لم يكن قد بلغ الثامنة من عمره بعد . وما أن التفت توم خلفه حتى رأى هندياً يندفع نحوه من مكانه . وفزع توم لأن الهندي إما أن يأسره وإما أن يقتله في الحال . وتعلقت عيناتوم بميدالية ذهبية كانت تتدلى من صدر الهندي ، وبعدها بلحظات سمع صوت طلقة أخرى تدوى في الفضاء وشاهد الدم يندفع غزيراً من الثقب الذي أحدثته الرصاصة تحت الميدالية . وسرعان ما ارتدى الهندي على أثرها تحت قدمي توم ، فقد كان الذي أطلق الرصاصة شقيق توم الذي كان يستطيع إصابة أي هدف على مرمى البندقية .

وبموت أبراهام الجد تفرقت العائلة في الجهات الأربعة ، وكان من نصيب توم أن يرحل إلى إنديانا .

وما أن وصل أبراهام لنسكولن بذكرياه إلى هذا الحد حتى أفاق على صرخات نمر بعيدة، بعثت بالعرشة إلى أوصاله .

وما أن وصلوا إلى المزرعة الجديدة حتى تعرف إيب عليها بأكوام القش التي كان والده قد وضعها على أركانها الأربعة لتحدمساحة ١٦٠ فدانا . وسرعان ما نصبوا خيماً مؤقتاً يرتكز على أعمدة خشبية ، سقفه من القش وأغصان الأشجار، وتركوا واجهته الجنوبية مفتوحة، وأقاموا أمامها ناراً من الحطب تركوها مشتعلة ليل نهار . وفي تلك المرحلة كانت أوراق الأشجار هي قراشهم وغطاؤهم . وما كان أسوأ ما تؤول إليه حالهم حينما كانت تمطر السماء إذ تحاصرهم المياه من كل جانب فلا يدرون ما يفعلون . ولكن ما أن استقروا بهم الحال قليلاً حتى بدأ توم في بناء كوخ قوى جديد، وكان على إيب وأخته ساره والدهما أن يبقيا في الخيم المؤقت طوال المدة المتبقية من الشتاء القاسي حتى يتم لنسكولن الكوخ الجديد . ومن حسن الحظ أن الغذاء كان متوفراً في تلك الأنحاء ، لكن الماء كان مشكلة المشاكل إذ ظل إيب لمدة عدة سنوات يذهب إلى النبع الذي يبعد مسافة ميل كامل كلما احتاجت العائلة إلى الماء . وفوق ذلك كان يساعد والده في احتطاب الخشب لبناء كوخهم الجديد .

وبعد تلك الحقبة بسنوات عديدة ، كتب أبراهام لنسكولن في مذكراته يقول وكأنه يحادث شخصاً ما :

« كان أبراهام بالرغم من صغر سنه أكبر من سنه بكثير ، وكان يحيد استعمال بلطة أعطيت له منذ صغره ، فظل يستعملها في كل شيء حتى بلغ الثالثة والعشرين .



وفي تلك السنين ابتداء إبراهيم تجاربه في الصيد . . إذ أنه قبل أن يبلغ الثامنة من عمره بأيام وحين كان أبوه غائباً عن الكوخ شاهد إبراهيم سرياً من الديكة الرومية البرية يقترب من كوخهم الخشبي ، فأطلق عليه النار خلال ثقب في حائط الكوخ وقتل أحدهما . ومنذ ذلك التاريخ لم يشد إبراهيم زناد البندقية مرة أخرى .

مع شهر إبريل (نيسان) بدأ الربيع في موجاته المتتالية ، يحمل الأشجار بالأوراق ويفتح الزهور على طول نهري الميسيسي وأوهايو حتى وصلت بشارته إلى «يجون كريك» وأجالت الخيم المؤقت وخلعت على الكوخ الخشبي حلة رائعة من الزهور البيضاء تلمع بالندى النقي وكأنها كأس الآلهة . وزحف الربيع إلى ما وراء ذلك خلال العشب الأخضر تاركاً وراءه البنفسج الأرجواني والشقائق الأصفر كأنه النمل .

وفي خريف ١٨١٧ هبطت وحدة عائلة لنكولن بوصول دنيس هانكس وتوماس دنيس سبارو اللذين كانا قد تبنيا نانسي لنكولن وابن عمها دنيس والد دنيس من طائفة «ميتا» بعد كايوأم نانسي لنكولن الحقيقيين . واقامت عائلة سبارو في الخيم المؤقت الذي كان لنكولن قد تركه للسكن في كوخه الجديد الذي بنواؤه والذي جعله لنكولن بحمام . ونصبت نانسي مغزلها هناك ، وكان في استطاعتها أن تطبخ على نار تخرج من مدفأة حقيقية وأن تنام على سريرها . حصلت مرة أخرى على كرسي صغيرة ومائدة للطعام . ولكن توم لم يستطع أن يترك الكوخ . كانت له مفصلات ولم يكن عنده مشمع لتغطية فتحات النوافذ ، لذلك كان الهواء البارد يتسلل من تحت الجلود التي كانت تغطي الثقوب والفتحات الموجودة في الكوخ ، ولا عجب إذ لم يستطع الرواد الأوائل أن يعيشوا طويلاً في مثل هذه الظروف .



وبينما كان البرد يهراً أوصال أفراد عائلة لنكون في كوخهم غير المكتمل شتاء عامي ١٨١٧ و ١٨١٨ ، كانت عائلة سبارو تتجمد أوصالها في الخيم المؤقت الذي نزلوا فيه . وبالرغم من الصقيع والبرد استطاعت العائلتان تجهيز ٦ فدادين لزراعتها عند حلول ربيع عام ١٨١٨ ، واعتمدوا في أكلهم على الصيد وثمار الغابة .

وما أن حل خريف العام التالي حتى أصاب تلك المنطقة وباء مخيف وغامض لم يفرق بين الإنسان والحيوان . ومهما كان أمر هذه الغمة ، إلا أنها أصابت توماس وديس سبارو فتركتهما مريضين في رعاية نانسي . ولم يمض وقت قليل حتى سقطا ميتين في مضجعهما المصنوع من القش . ولم يمض وقت طويل على مواراتهما مقرهما الأخير حتى سقطت نانسي صريعة لهذا الدواء الويل . وكان أقرب طبيب يبعد عنهما مسافة خمسة وثلاثين ميلاً . وحتى لو كان في استطاعة توم إحضاره لما كان في استطاعته أن يفعل شيئاً ، إذ أنه لم يكن في كل تلك البلاد من يعرف علاج هذا الوباء .

وعندما انقشعت السحب وتركت السماء بزرقتها الصافية ، واخضرت الأوراق من جديد ، ودعت الأم الصالحة ولديها أبراهام وساره إلى جوارها وطابت منهما أن يعداها بأن يجب كل منهما الآخر ويعطف عليه . . أسلمت روحها إلى بارئها تاركة وراءها يتيمين ومغزلاً صامتاً لا يدور ، وبدا الكوخ كأنه حزين ووحيد في وسط تلك الغابة الواسعة .

— ٢٤ —

وساعد إيب ودنيس وثوم في صنع الكفن للناسي وخفروا لها قبراً  
في الغابة وضعوها فيه . وبالرغم من أن إيب كان في التاسعة من عمره  
فقط ، إلا أنه لم ينس أبداً الطريقة المؤلمة التي ماتت بها أمه ، كان كل شيء  
هادئاً حتى إن أوراق الخريف تساقطت ، ومرت ريح الشتاء دون أن  
تحدث أي صوت . وكان المكان الذي دفنت فيه نانسى هو ملاذ إيب  
كلما شعر أنه حزين أو وحيد .

## الفصل الثالث

### الأم الجديدة



« كان إيب ولداً طيباً . لم يفضي أبداً لا بالفعل ولا بالقول . وكان يحب كل إنسان وكل شيء . وبالرغم من صغر سننا كان تفكير عقله وعقله يسيران في نفس الاتجاه » .

### سيرة لنكولن

ولمدة عام كامل بعد وفاة نانسي لنكولن قامت سارة التي لم تكن قد تجاوزت الثانية عشرة من عمرها بكل مسؤوليات المنزل تجاه والدها وأخيها الذي بلغ العاشرة ، وديس هانكس أيضاً . . . كانت الحياة في الكوخ غير الميكتمل على روابي « بيجون كريك » . . . تسير في بؤسها للأهل وكان أكثر ما يحز في نفس توم أنه لم يستطع أن يشيع زينة في نفسه . . . وعائلة سبارو إلى مقرهم الأخير بالصلاة الضرورية لرحلتهم ، الأتخلاق . . . وخفف من ألمه القس « إلكن » الذي وصل من مقاطعة هاركن بطلان أن يقرأ الصلاة الأخيرة على روح الراحلين بحضور إيب وسارة وديس ونعيم الذين ركعوا بخشوع يطالبون من الله الرحمة للذين ذهبوا وابتاعهم رفاهتهم ، رماداً . ولكن الكلمات مهما كانت لا يمكن أن تعوض الإنسان أحباءه الذين فقدهم . . . فنانسي لم تعد هناك لتعطيهم القوة والحب والعطف والحنان ، وتغزل لهم ملابسهم ، وتضع لهم الصابون والشمع . . . وفي ذلك الوقت الجوانج الكتيب المليء باليأس لم يعد أحد منهم يهتم بنفسه . . .

ومع الخريف التالى جاءت الذكرى الأولى لوفاة نانسى ، ولم يعد توم  
يحتمل ألم الفراق ، فقرر الذهاب فى رحلة إلى كنتاكي تاركاً وراءه الأولاد  
الثلاثة لوحدهم وتخيلاهم . وعند ما كانت الريح تصفر فى الليالى المظلمة  
وتساقط أوراق الخريف فوق سقف الكوخ ، كان يخيل لهم أنها وقع أقدام  
نمر مخيف يتحسس طريقه إليهم لينشب فيهم مخالبه .

ولم يضيع توم أى وقت حين وصل إلى بلدة إليزابيث حيث قصد لتوه  
إلى منزل « سبارة بوش جونستون » التى كان قد تودد إليها قبل زواجه من  
نانسى هانكس وكان زوج سارة قد توفى تاركاً لها ثلاثة أطفال هم  
إليزابيث ومايلدا وجون ، وبينما كان ولدا توم فى حاجة إلى أم كان أولاد  
سارة الثلاثة فى حاجة إلى أب .

وكما حكى قصة الزواج الجديد شاهد عيان ، قال توم لسارة « ليس لى  
الآن زوجة وليس لك أنت أيضاً زوج ، وقد عرفتكم منذ كنت طفلة  
وعرفتني أنت منذ كنت أنا صيياً وليس لدى وقت لأضعه هنا . فإذا  
كنت ترضين الزواج بى فيجدر بنا أن نتزوج حالا . . . » . وردت عليه  
سارة قائلة « تومى العزيز ، حقاً عرفتكم جيداً وليس لدى أى مانع لأن  
أتزوجك ولكن يجب أن ننتظر قليلاً لأسدد ديونى » . ولكن هذا الموقف  
لم يثبط من عزم توم فقد دفع كل ديون سارة . وفى اليوم التالى ، فى الثانى من  
ديسمبر ١٨١٩ تزوجها .

ودهش إيب وسارة ودينس لرؤية العربة التى تجرها الخيول الأربعة  
تأتى محملة بالدواليب والأدراج والأدوات المنزلية من المغزل إلى أطباق  
الصفائح . وبالإضافة إلى كل ذلك حملت لهم العربة أماً جديدة ترسم البسمة

على شفقتها ، وحملت لهم أيضاً أخاً جديداً وأختين جديدين . ولا بد أن سارة لبوش جونستون كانت ذات أخلاق حميدة إذ أنها تركت منزلها الصغير النظيف المريح المؤث لتأني وتعيش في كوخ ذى أرضية قلدة وبدون نوافذ ولا أبواب ، ليس به إلا بعض قطع الأثاث الخشبية ومراتب من القش وسرير خشبي . وكان إيب وسارة ودينس أبعد ما يكونون عن النظافة حتى أن دينس نفسه اعترف بقوله إن ملابسهم كانت ممزقة وقذرة حينما وصلت سارة إليهم ، وكان أول شيء فعلته سارة أن طالبت من دينس أن يضع بعض المقاعد الخشبية بجوار باب الكوخ . وبعد ذلك « جعلتني أنا وإيب وابنها جون جونستون نملأ الخوض بالماء من النبع . ووضعت هناك علبه ملأتها بالصابون السائل وإلى جوارها صفيحة مليئة بالماء . وطلبت منا أن نغسل أيدينا استعداداً للغداء ، وشعرنا بأهميتنا عندما تكون العمة سارة موجودة » . ولم يطل الأمر بإيب وأخته حتى أحبا زوجة أبيهم الأنيقة المحبة ، وبدأت هي بدورها تهتم بنظافة ملابس أطفالها الجدد بكل مهمة ونشاط . مسحت الكوخ ونظفته ولم تترك أثراً للعنكبوت ، وأصررت على أن يصنع لها توم باباً جديداً بمفصلات ، وأسرة جديدة أيضاً ، بينما ملأت هي المراتب بقش جديد ، ووضعت فوقها مراتب من الريش الذي أحضرته معها ، واشترت بعض الجير دهنت به حوائط الكوخ وسقفه ، ووضعت في أحد أركانها المكتب الذي كلفها يوماً ما ٥٤ دولاراً ، وشعر إيب أنه أصبح إنساناً جديداً . ولم تدخر زوجة الأب الجديدة أى جهد في سبيل تشجيع طموح إيب إذ كانت امرأة ذات رقة وسحر وشجاعة . وصفتها إحدى حفيداتها بأنها امرأة طويلة منتصبه القامة كالهندي الأحمر ،

أنيقة ، تحسن الحديث وذات كرامة . . احتفظت بالسكوخ في نظافة تامة  
وسيطرت على الأولاد بكل محبة وتحمل . وكثيراً ما شاركت إيب  
ضحكاته العالية .

وما كان أجمله من عيد ميلاد صاحب ليلة ٢٥ ديسمبر ١٨١٩ عند ما  
أعدت سارة الديك الرومي وبعض لحم الغزال للأطفال الجياع . . وكم  
كانت سعادة توم لتكولن عند ما تتم بكلمات الشكر للسعادة التي منحه  
إياها الله . حينئذ رأى الأولاد مجتمعين حول المائدة يحتفلون بعيد الميلاد  
في كوخ نظيف مع أم ترعاهم .



## الفصل الرابع

التعليم على الحدود



كانت هناك مدارس . هكذا كنا نسميها . ولكن لم تكن مؤهلات المدرس  
تعدى إجادته القراءة والكتابة .. ولم يوجد أى حافز لإثارة الطموح في  
الإسنان للتعليم ... »

## أبراهام لنكولن

كل من رأى أبراهام لنكولن في صباه ، تلك الفترة التي أمضاها حافي  
القدس ، يذكر عنه شئنين . أولها أن بنطلونه كان قصيراً لا يكاد يتعد عن  
ركبتيه ، وثانيهما أنه كان دائماً يحمل كتاباً في يده ، مما ساعد أبراهام على أن  
ينمى عقله جنباً إلى جنب مع جسده . فن الناحية الجسمية ، أصبح لنكولن  
في أوائل عشرينياته قتي طويلاً علقاً . . أما من الناحية العقلية فقد أصبح  
أذكي فتيان الناحية على الإطلاق وأسرعهم بديهة . وكان في استطاعته أن  
يستولى على انتباه أية مجموعة من الناس بتقليده خطاباً الوعاظ أو السياسيين . .  
ويجملهم يضحكون من كل قلوبهم ، أو ينصتون مرهفي السمع حينما كان يعيد  
عليهم ما استعادته ذاكراته من بعض الصفحات التي قرأها . وكان أبراهام  
لنكولن بطبعه خجولاً في بعض الأحيان ، وأحياناً أخرى مجاًلاً لاستعراض  
مهارته . كان رقيقاً . وعلى الرغم من ذلك لم يكن ليتردد في أن يقاقل بضراوة  
إذا ما أثار ثأريته أحد .

وفي خلال حياته كلها . . حتى بعد أن أصبح رئيساً للجمهورية كان أبراهام يبدو حزيناً لأنه لم يستطع أن يتلقى تعليماً منتظماً ، وكان قائماً بالقسط الذي ناله من الثقافة من خلال قراءته الخاصة . وبالرغم من نشأته في محيط فقير غير متعلم إلا أنه كافح وحيداً بكل صلابه حتى أصبح أكثر حكمة من ملايين الناس الذين اغترفوا من مناهل العلم والدراسة .

كانت حياة أبراهام لتكوين التعليمية بالقسط كما وصفها بنفسه . إذ درس على يد خمسة أساتذة : اثنان في كنتاكي وثلاثة في إنديانا . وكان مجموع مدة الدراسة لا يزيد عن عام واحد . أما عن أساتذته في إنديانا فكانوا كراوفورد ودورس وسوانى ، وكان كل زاده من الكتب هو كتاب القراءة وكتاب الحساب والإنجيل . وكانت جميع المدارس في مناطق الحدود تشابه ، فيدفع الطالب مصاريف عينية من إنتاج المزرعة مثل اللحم أو القمح . وفي بعض الأحيان جلد الراكون . والمدرسة نفسها عبارة عن كوخ خشبي يدخله قليل من الضوء ، مقاعدها غير مريحة . وبينما تسكد وجود الطلبة الذين يجلسون في المقاعد الأمامية تحترق من هيب المدفأة ، يرتعد الطلبة الذين يجلسون في الصفوف الأخيرة من البرد الذي يكاد أن يجمد أصابعهم فيجدون صعوبة كبرى في الإمساك بالقلم .

وأثناء الفصل الدراسي كان على إيب أن يسير إلى المدرسة التي تبعد أربعة أميال ونصف الميل ، ومثلها في العودة منها . . لكن تتمتع بمنظر السنجاب وهو يحمل ثمار البلوط والجوز إلى وكره . . أو بمنظر الغزلان وهي ترح في الغابة في الجو الصحو قد خفف عنه تلك المسافة ، أما أيام الشتاء المطيرة الباردة ، فاقد قاسى منها الأمرين ، إذ كثيراً ما كان يعود من المدرسة وقد تجمدت أطرافه من البرد وثيابه تقطر ماءً . . .

ووصف دنيس هافكس هذه الايام بقوله :

« لم تكن الاحذية تسمى أرجلنا من البلى ، وكانت جواربنا ملبتة بالثقوب . وزاد من ألمنا تلك الأميال التسعة التي كان علينا أن نسيرها في الذهاب وفي الإياب في ذلك الجو البارد العاصف » .

وبالرغم من كل هذا التعب ، فقد أحب إيب المدرسة وحاول الاستفادة من كل يوم قضاء فيها . إذ كان يصل إليها مبكراً ، متفوقاً على أقرانه في النصف الدراسي فكان أولهم دائماً . ولم يكن يخطئ أبداً في هجاء الكلمات مما جعل مدرسه يتعلق به ويؤثره على بقية زملائه .

والمدارس في إنديانا هي الأخرى كانت على شاكاة مدارس كنتاكي ، تنهج على التدريس بالصوت المرتفع ، فكان على كل تلميذ بالفصل أن يستذكر دروسه بصوت مسموع ، حتى يخيل لكل من يقترب من المدرسة أنها خلية نحل تموج بالصوت والحركة . وكان المدرس يستعين بعضاً من خشب الجوز في حشو عقول التلاميذ بالمعلومات . . وكان عليه أحياناً أن يستعين بعضلاته في قتال تلميذ كبير ليثبت أنه الأقوى . ولاعجب إذا لم يتعلم أحد شيئاً . .

حاول كرافورد كثيراً أن يعلم تلاميذه الأخلاق بأن يجعل أحد طلبته يقرع الباب قبل الدخول ، ثم يقدم نفسه كأنه غريب عليهم حتى يعودهم الأدب وحسن التصرف . أما في مدرسة دورس فكان أهم شيء تعلمه إيب هو القراءة بطلاقة ووضوح إلى جانب اكتسابه الخط الجليل . ومن العجيب أن يطلب منه في مدرستي دورس وسوان ، وهو ابن الحدود الخشن ، أن يكتب مقالات عن عدم استعمال العنف مع الحيوانات . ولكنه كان دائماً محباً للشعر يحاول

- ٣٦ -

أن يكتبه . وبالطبع لم يستطع منافسة شكسبير فيما كتب ! وفي أخذ دقاته  
المدرسية نجده قد كتب هذه الآيات الحزينة بخط يده :

إن الوقت يتلاشى كالبحار

وتمر الأيام سراعاً

خاطفة كأنها سهم هندي

تطير كالشهاب

فلا نحس إلا باللحظات التي نعيشها

والتي هي بدورها تتلاشى في اللانهاية

حتى لانستطيع أن نقول إننا عشناها

إذ أنها هي الأخرى أصبحت ماضياً لن يعود .

ولا عجب لذلك إذا رأينا عدداً من جيران إيب يذكرون عنه أنه كان  
« كسولاً » وأنه لم يكن يحب عمله كثيراً . . . ودنيس هانكس نفسه الذي  
كان معجباً بلنكولن اعترف أن إيب كان . . . « كسولاً جداً . . . دائماً يقرأ . . .  
ويكتب . . . ويسمع لنفسه ما يقرأ . . . ويحمل إيب بنفسه هذا الموقف .  
بقوله لأحد المزارعين أن والده علمه كيف يعمل لكنه لم يعلمه كيف  
يجب عمله .

والحقيقة أن لنكولن الصغير الذي كان ينمو باستمرار عقلياً وجسدياً  
كان دائماً مشغولاً بثقيف نفسه ، بالإضافة إلى الأعمال اليدوية التي كان  
يزاولها منذ أن بلغ الثامنة من عمره . ولم تكن هذه الثقافة بالنسبة للذين كانوا



يعيشون في تلك المناطق تعتبر عملاً . لكن هذا الصبي الغير الذكي كان يعد نفسه لمستقبل عظيم لم يخطر لمثل هؤلاء القوم على بال ( ولم يخطر على باله هو أيضاً ) .

ويبدو أن توم لنكون كان مسروراً وفي نفس الوقت غاضباً من هذا الابن المتعب الذي كان يجب أن يساعده في فلاحته الأرض وإقامة سور حولها . إذ كان في استطاعة إرب أن يغري أى شخص بأن يترك عمله ويقف ليسمعه وهو يحاول التمثيل بالإشارات ، معبراً عن معان خاصة تجعل كل الموجودين يضحكون .

وكثيراً ما فعل ذلك في كل مكان . . . في محل جنترى . . . وفي محل الحدادة . . . وفي الطاحونة حيث كان لنكون يذهب ليطحن الحبوب وأصبح محبوباً من الجميع هناك . كان يشاهد دائماً ويده كتاب يقرأ فيه . . . أثناء الأكل ، وأثناء حراثة الأرض ، وبحوار المدفأة . وكم تعجب توم الذي لم يكن ليستطيع أن يكتب اسمه من الفائدة التي يمكن أن يجنيها مثل هذا الفتى من كثرة القراءة .

كان يقول بعض الناس إن أباه كان يعطف عليه ولم يحاول أبداً أن يقطع عليه دراسته . ولكن دنيس هانكس الذي كان يشعر بمحبة عميقة لكل من توم وإرب شهد بأن توم كان يضرب ابنه أحياناً عندما يتجاوز حدوده مع الغرباء . لكن إرب وجد التشجيع على المضي في القراءة في زوجة ابيه . ومن إحدى مهازله ، أن أبراهام لنكون رفع بين يديه طفلاً تلوثت أقدامه بالطين وجعله يستند بهاتين القدمين على حائط الكوخ الأبيض الجميل . وبدلاً من أن تغضب زوجة ابيه عندما رأت الآثار القذرة التي تركتها القدمان ، انفجرت ضاحكة ، مما جعل إرب يضحك من نفسه ويسرع بتنظيف المكان . وتشابه إرب



وزوجه أليه في التفكير جعلهما على وفاق دائماً فهي لم تكن لتوبخه أبداً عندما تراه يقرأ إلى ما بعد انتصاف الليل أو أثناء تناول الطعام .. فلقد كان من رابع المستحيلات أن يمنع أحد الصغير لسكون من التمتع بسحر الكلمات المكتوبة ، التي كانت تحمله على أجنحه الأحلام وتزوده بالعلم والمعرفة .

قال دنيس هاتكس إنه لا يذكر أنه رأى أبراهام لسكون بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره إلا ومعه كتاب ، وحين كان يذهب لفلاحة الأرض كان يضع الكتاب داخل قميصه .. وفي وقت راحته عند الظهر كان يضطجع في ظل شجرة وارفة يقرأ ويأكل .. ثم يختار مكاناً مريحاً في السكوخ ليقراً فيه عند عودته ليلاً من الحقل . والغادتان اللتان لم تفارقا أبراهام لسكون طوال حياته كانتا القراءة وطريقة تمديد ، أثناء القراءة . وأولى الكتب التي قرأها بنهم شديد كانت خرافات إيسوب ، وروبسون كروزو ، ورحلة الحاج ، وتاريخ حياة واشنطن . قرأ هذه الكتب عدة مرات حتى استطاع أن يحفظ منها عدة صفحات عن ظهر قلب .

ومما يذكره في هذا المقام أن كثيراً من الناس انتقدوا كتاب قصة حياة واشنطن وذكروا بسخرية الجزء الخاص بواشنطن الصغير ، حين اعترف لوالده أنه هو الذي قطع شجرة الكرز بفأسه الجديدة وذلك حتى لا يكتنب . لكن قلنا تعرض أحد لما كان بهذا الكتاب من أثر عميق دائم على شخصية إيبامين . فكثيراً ما حاول أبراهام لسكون أن يجد حذو واشنطن حتى إننا نرى الآن تشابهاً كبيراً بين الرئيسين الشهيرين . فالاثنتان ينحدان من أصل إلميزي وكلاهما طويل القامة . « كان طول واشنطن ستة أقدام وبوصة واحدة بينما كان طول لسكون ستة أقدام وأربع بوصات » . وكان الاثنان

من هواة الرياضة في شبابهما، كما تعلم الاثنان فن السباحة . وبالطبع أصبح  
الاثنان من رؤساء الولايات المتحدة . والحقيقة المؤكدة أن الاثنان كانا أمينين  
فوق العادة . ولعل من بين الشباب الناشئ اليوم من سيتأثرون طول حياتهم بقراءة  
تاريخ حياة واشنطن ولنكولن . ولعل من بين هذا الشباب أكثر من واحد  
سيكون رئيساً للجمهورية في المستقبل . وفي الأيام التي كان يعيش فيها  
لنكولن .. كان على الأولاد أن يرتبطوا بأبائهم حتى سن الواحدة والعشرين  
ولم تكن هذه الفرصة لتفوت نوم لنكولن ، فكان يحصل لنفسه على ما يكسبه  
إيب من عمله ، كان يرسله أحياناً إلى الجيران ليذبح لهم ماشيتهم مقابل ٣١ سنتاً  
في اليوم . وبالنسبة لشخص مثل إيب الذي تعلم أن يكون غنياً للحيوانات ،  
وكتب في ذلك مقالات أثناء دراسته ، وترك الصيد لأنه لم يكن يحب رؤية  
« قتل الحيوان — لم يكن مثل هذا العمل محبوباً لديه . لكن الشيء الوحيد  
الذي من أجله كان يقبل أن يذهب لهذا العمل هو أنه أتاح له الفرصة في  
الخطابة فيمن يذهب إليهم ويتسابق ويمرح معهم . وكانوا كثيراً ما يتبادلون  
معه النكت النابية ، وبالرغم من أن الجميع كانوا يشربون في هذا المناسبات ،  
إلا أن لنكولن لم يكن يقرب الخمر أبداً . وكان شغفه بالمعرفة يزداد يوماً  
بعد يوم . وكانت قصصه ممتعة بمقياس تلك الأيام ، لكن تفكيره وعقليته  
كانتا أكبر بمراحل كبيرة من كل جيرانه ومن كل من قابله أثناء بحثه عن  
كاتب جديد او جريدة ليقرأها ، وكانت قراءاته السياسية أول الأمر عن  
الحزب الديمقراطي ، وأخيراً اتجه ليحذر رأي « الهويج » ، وبقي من أنصارهم  
أكثر من ربع قرن حتى التحق بالحزب الجمهوري في منتصف عام ١٨٥٠ ،  
وهو الحزب الذي أدخله أخيراً إلى البيت الأبيض .

وفي أثناء هذا الوقت . اكتشف إيب كستاين كان لها تأثير كبير على  
عقليته الناضجة ، هذان الكتابان هما ( قوانين إنديانا ) وكتاب ( الطبقة .



الكولومبية ) ، ولم يثر الأول اهتمام لنسكولن بالقانون لحسب ، بل قوى من إيمانه واهتمامه بمواد إعلان الاستقلال الجديدة التي أدخلها توماس جيفرسون . وأثار هذا الكتاب أيضاً اهتمامه بوثائق أخرى هامة كالتعديلات العشرة الأولى للدستور . وتعلم من هذا الكتاب أن على الولايات الشمالية الغربية . بما في ذلك إنديانا ذاتها ، أن تحرم الرق للأبد . وهكذا خرج لنسكولن بنظريته العظيمة أن جميع الرجال خلقوا متساوين وأن الخالق وهبهم حقوقاً لا تنقسم ، ومن بينها حق الحياة والحرية والبحث عن السعادة .

أما الكتاب الثاني ( الطبقة الكولومبية ) فإنه وسع من أفقه أبعد من حدود الولايات المتحدة ، بل حتى أبعد من نصف العالم الغربي . فمن ذلك الكتاب ازدادت معرفته وعلمه بالجغرافيا وتاريخ العالم أجمع . ونقله هذا الكتاب أيضاً أبعد من عالمنا الذي نعيش عليه ، إذ فهم لب من أن عالمنا هذا ليس إلا واحداً من عدة كواكب تدور حول الشمس البعيدة الملتبمة ، وأنه حتى هذه الشمس ليست إلا واحدة من ملايين الشموس التي نطلق عليها النجوم . وكان هذا الكتاب كفيلاً حقاً بتوسيع مداركه وأفقه . وعلى ضفاف أحد الجداول ، وأربعة أقدام تتدل في مائه ، أقام لب وإحدى جيرانه من الفتيات وتدعى كيتي روبي — وعلى ضوء غيابة الشمس من بعيد وظهور القمر بنوره الفضي ، قال لنسكولن لكيتي إن الشمس نفسها لا تنزل ولا القمر يصعد ، لكن الذي يحدث فعلاً أن الأرض تدور حول محورها مما يجعلنا نرى هذه الأجسام السماوية تهبط وتصعد . ولم يكن لب يحب كيتي ، لكنهما كانا صديقين . ولم تنس كيتي طوال حياتها ذلك الدرس البسيط البديع في علم الفلك ، ولا كم كان لب لنسكولن يبدو ذكياً بل عالماً ، حين جلس على حافة ذلك الجدول في تلك الأمسية الهادئة ، يشاهد معها بزوغ القمر من بين أشجار إنديانا الجنوبية ، كأه قرص من الذهب . . . مستدير .





## الفصل الخامس

السَّقَرُ بِالْقَارِبِ فِي نَهْرِ الْمَسِينِ





« أنا لا أخجل من اعترافى بأننى كنت عاملاً أجيراً ، وأننى اشتغلت مع العمال  
لدى خطوط السكك الحديدية » ، وعملت على قارب صيد .. كما يحدث تماماً  
لأن أى رجل فقير .. » .

أبراهام لنكولن .

كان أبراهام لنكولن خلال حياته كاماً مهتماً بالقوارب والملاحة  
النهرية . وما يذكر أنه قبل أن يولد لمب ، بنى والده يوم قارباً حمله الكثير  
من إنتاج المزرعة وأبحر به عبر نهر أوهايو والميسيسي إلى نيو أورليانز .  
فقد كانت الوسيلة الوحيدة لنقل المحاصيل فى تلك الأنحاء هى عن طريق  
النهر . أما المكان الوحيد لتصرف إنتاج المزارع فقد كان ميناء نيتليو  
أورليانز .

وقبل أن يتمكن لمب من أن يقوم بأول رحلة له فى النهر ، كان عليه أن  
يتعلم أصول المهنة ، فعندما بلغ السادسة عشرة من عمره ، عمل مع جيمس  
تايلور فى بناء معدية صغيرة وبدأ فى استغلالها عندما نصب أندرسون كريك  
حيث يلتقى أحد الروافد بنهر أوهايو . ولم يكن يكسب من هذا العمل أكثر  
من ٣٧ سنتاً فى اليوم فى مقابل ذلك العمل الشاق . لكنه كان يطلب  
بالإضافة إليها قليلاً من النقود كلما أخذ بعض الركاب فى قاربته الصغير لينقلهم  
إلى إحدى السفن الراسية فى قلب النهر . لكنه لم ينسأ أبداً ذلك اليوم  
الذى عبر فيه النهر برجلين إلى أحد المراكب المنتظرة ، وكافأه الرجلان

حينذاك بقطعتين فضيتين من نصف الدولار، ولم يكن الصبي الفقير مصدقاً أنه  
استطاع أن يكسب دولاراً كاملاً في أقل من يوم واحد .

وبلوغ لتكوين السابعة عشرة من عمره أصبح طوله ستة أقدام  
وبوصتين ، وارتفعت البوصات إلى أربع ببلوغه التاسعة عشرة من عمره .  
كان أميناً موثقاً به محبوباً من جميع جيرانه ، وأصبح شاباً قوياً حتى إنه كان  
يستطيع أن يستعمل هراوته أقوى من أى رجل آخر يعيش في ذلك الجزء  
من إنديانا ، فلاغرو ان يمنحه جيمس جنترى فرصة كانت هي فرصة  
العمر بالنسبة لأيب .

كان جنترى من أغنى رجال تلك المقاطعة ، يملك مخزن المدينة ، ويملك  
أيضاً أكثر من ١٠٠٠ فدان مزروعة . وما أن عرض على أيب أن يبنى مع  
نجله ألن قارباً ليحملاه بالإنتاج ويذهبا به إلى نيواورليانز ، حتى اقتنص  
لأيب الفرصة ولم يدعها تفلت من يديه ، كانت مكافأة أيب عبارة عن ثمانية  
دولارات في الشهر بالإضافة إلى نفقاته طوال مدة خدمته بما فيها رحلة  
العودة .

وكانت القوارب المسطحة من أقصى أنواع المواصلات النهرية إذ كانت  
تصنع من دعامات مربعة كبيرة واللواح خشبية سميكة يتراوح طولها من ٢٠  
إلى ٨٠ قدماً ويتكلف بناء كل قدم طولى حوالى الدولار . كانت هذه العائمة  
عبارة عن خليط من كوخ ، وقلعة ، ومخزن عام ، وبقالة متحركة ذات جوانب  
حالية يكتفى طولها لحمايتهم من رصاصات قطاع الطرق الهنود وقراصنة النهر .  
وإن تكن هذه القوارب كانت ثقيلة إلى حد أنها لا تستطيع المناورة أو الرجوع  
إلى الوراء ضد التيار على الرغم من استطاعتها أن تحمل الكثير من البضائع  
إلى مدينة نيواورليانز الغنى ، وأغلبها من الحبوب والويسكى واللحم .



ولم يكن أبراهام لنكولن ليهم بالصعاب التي سيقابلها في تشييد مثل هذا القارب ، إذ أنه كثير ما ساعد والده في البناء الذي أكسبه مهارة فائقة في استعمال القدوم والبلطة والمنشار وكل أدوات النجارة الأخرى ، ولا بد أن جيمس جنترى قد نظر بعين الاعتبار إلى كل هذه المؤهلات حين استعان بلنكولن لخدمته . فلم يكن بناء المركب والسفر به عملية سهلة يناط أمرها برجل ضعيف . فالحياة في مثل هذه المياه كانت شاقة ومتعبة إلى جانب خطورتها . وبالرغم من أن ملك القراصنة « مايك فنك » الذي اشتهر بصراوته وبدم رحمته لأحد ممن وقعوا في قبضته — إذ كان يقتلع عيونهم ويجمع أنوفهم — بالرغم من أن هذا القرصان لن يكن يباشر قرصنته في الوقت الذي استعد فيه إيب وألن لبدأ رحلتهما في بريل ١٨٢٨ ، إلا أنه كان هناك قراصنة آخرون في مثل قسوة وعنف « مايك فنك » يباشرون نشاطهم في تلك المياه .

كان لنكولن بطيء الغضب ، ولكن جيمس جنترى كان يعرف مقدما أنه إذا صادقتهم أية متاعب في الطريق إلى نيو أورليانز ، فإن ابنه ألن سوف يجد في لنكولن خير رفيق ليدافع عن القارب وحولته ، فإذا أمكنهم تخطي الكهف الصخري مأوى القتلة وقطاع الطرق على شاطئ إلبينوى في نهر أوهايو ثم تجنبوا أوكار القراصنة الأقل خطراً بأمان ، فربما استطاعا الوصول إلى نيو أورليانز بسلام .

وحين بدأت بشائر الربيع الأولى في الظهور وبدأت أغصان الأشجار تمتلئ بالأوراق الخضراء عباً لإيب وألن قاربهما الجديد بالمؤن والبضائع وكل ما كان جنترى يود بيعه في نيو أورليانز ، وبدأ الاثنان مغامرتهم المثيرة من أرض جنترى .

يمر نهر أوهايو في تلك المقاطعة عريضاً هادئاً يحمل على صفحته في

أيام الخريف بعض الأغصان ، بينما يحط البط والأوز البحري في أسراب عديدة على صفحته أيام الربيع وهي تتجه شمالا مهاجرة نحو القطب ، فتزداد صيحاتها المثيرة في جوانب الغابات . وكان الصيادون يرسون بمراكبهم إلى جوارم الروافد طلباً للراحة أو لتناول الطعام — ومن آلاف الروافد كان النهر العظيم يستمد مياهه واستمر إيب وألن في سيرهما بالقرب مع التيار سواء أكان الجو مشمساً أم مطيراً ، ينمان مساء في المأوى الخشن في نهاية القارب . حتى استطاعا أن يتخطيا بسلام الكهف الصخري الشهير ، ودخلا إلى المنطقة الموحلة من نهر المسيسيبي .

ولقد كانت المراكب البخارية تسير في النهر ، العظم منذ سنة ١٨١١ عندما كان عمر إيب عامين ، فلقد تم بناء ثمانى سفن بخارية لاستعمالها في النهر عام ١٨١٧ . وفي خلال عامين نزل إلى النهر أسطول آخر مكون من ستين سفينة أخرى . وبالإضافة إلى ذلك كان النهريعج بالقوارب والصنادل المتفاوتة الأحجام تحمل على ظهورها المستوطنين الجدد بمؤنهم وأدواتهم . وكثيراً ما شاهد إيب وألن هذه السفن البخارية وهي تنفث دخانها الأسود في سماء إربيل الصافية . ولو أنهما بدعا رحلتهما في ذلك القارب قبل ذلك بسنوات لشاهدا أضخم مركب بخارى للجيش الأمريكى راسية على الشاطئ ، وهي تلك التى صنعت على هيئة تنين ضخم جعل طلاؤها الأسود منظرها يبدو وكأنه وحش هائل من وحوش ما قبل التاريخ يرقد على الماء يبعث بالوعب إلى قلوب المحاربين الهنود . وبالرغم من أن إيب وألن لم يشاهدا هذا الوحش إلا أنهما قاما بمغامرات مثيرة .

وكثيراً ما حذرت ( مجلة الملاح Teh Navigator ) التى كانت لسان حال الملاحين في تلك المياه الجنوبية من أخطار تهدد الملاحين ، من بينها انهيار

ضفاف نهر المسيسي المرتفعة على القوارب إذا اقتربت من الشاطئ — وكانت أيضاً من بقايا فروع الأشجار المدببة التي تستطيع أن تخترق قاع القارب إذا ما اصطدمت به .. وكانت أشد هذه الأخطار الجزر الخشبية العائمة التي كانت تشكل عائقاً خطيراً على القوارب إذ كان التيار يدفع بعض القوارب التي أهمل ملاحوها المراقبة ، لتصطم بهذه الجزر فتتطم .

هل كان لدى لنكون ، الذي كان دائماً يقرأ في كتاب أو جريدة أثناء عمله في القارب ، وقتاً لكي يتناقش مع ألن جانفري في الصراع السياسي الناشئ من أجل رئاسة الجمهورية بين أندرو جاكسون وكوينسي آدمز ؟ وهل استطاع إيب أن يرى ثروات وادي نهر المسيسي ؟ أو هل ترك خياله يكتشف مصارف الري في الشمال بعظمتها ؟ أو مجاهل الغرب والجبال التي تحد الشرق الأكثر تقدماً في الصناعة ؟ وهل استطاع أن يرى حقيقة أن هذا الجنوب الذي يسافر فيه — مملكة المزارعين وعبيدهم — كان يشكل خطراً على تناسق أمة جبلت على الحرية ؟ ربما لم يخطر هذا كله على بال لنكون بالمعنى الصحيح ، لكنه كان دائماً يفكر ، وأفكار الشباب عميقة وطويلة المدى . لا يمكننا أن نعرف بالضبط ماذا دار بخلده أثناء تلك الرحلة وهو يبحر في المسيسي .. أما إذا بحثنا عن المغامرة البدنية ، فقد كانت قادمة قبل أن يتعدى إيب بعض روافد النهر . فذات ليلة حينما أصبح القارب قريباً من الوصول إلى نهاية غايته ، وعندما بات الوصول مؤكداً إلى نيواورليانز بسلام ، توقف إيب بقرب مزرعة مدام دونسن .

وكما روى لنكون بعد ذلك « كان نقص المؤن التي نحملها يضطربنا إلى أن نتوقف على فترات تجاه ساحل السكر للتجارة » . وهكذا في تلك الليلة ، حينما كانا نأمن في مأواهما على ظهر القارب هاجهما سبعة من الزنوج بقسوة .



وعنف . كان منظر الزوج يدل على نيتهم المبيتة للقتل والسرقة .. وبلا رخم من إصابتهما نتيجة المفاجأة في هذا القتال ، إلا أنهما استطاعا أن يردا المهاجمين ويصداهم . وفي سرعة قطعاً الجبال التي كانت تربط قاربهما إلى الشاطئ وواصلتا إبحارهما حتى المغيب ، ويجرح لسكران فوق عينيه في تلك المعركة وبقيت معه تلك الندبة طوال الحياة . لكنه لم يشعر بمرارة في قلبه لهذا الهجوم ، ولم يستنتج من ذلك أن الزوج قتلة أو قطاع طرق ، لأنه كان يعرف كثيراً من البيض والهنود ممن يقومون بتلك الأعمال الدموية إلى جانب أعمال القرصنة . ولذلك فإنه بعد خمس وثلاثين عاماً وقع لسكران وثيقة التحرير التي تنص مادتها الثالثة عشر على تحرير كل زنجي مستعبد في الولايات المتحدة .

كان ميناء نيوا أوليانز العظيم عالماً جديداً بالنسبة لإيب وأن . كانت القوارب قد شدت إلى المرفأ في صفوف يصل طولها إلى عدة أميال ، وكانت القوارب تصل إلى الميناء من الخليج وعلى ظهرها بحارة غرباء تتدل من آذانهم قرطان من الذهب ، وكانت منازل المدينة متباينة الألوان يخالها المرء قوس قزح ، في حين تشكل شعب المدينة من مختلف الجنسيات فمنهم الفرنسي أو الأسباني أو المكسيكي ، أو من العبيد ذوي البشرة السوداء اللامعة كأنها الأبنوس البراق .. كانت مناظر تثير حب الاستطلاع في هذين الشابين اللذين جاءا من حدود « ييجون كريك » . كان الجميع يحتلط عليهم سمع أجراس الكنائس وهي تصلصل بينما تداخلت صيحات الباعة الجائلين كل ينادى على بضائعه ، ولقد نجحا في بيع سلعهما بسرعة ، وحان الوقت للبدء في



رحلة العودة فاستقبلا إحدى السفن البخارية الصاعدة في النهر عام ١٨٢٨ ، وكانت هذه السفينة فاخرة الأثاث تصبح بالمقامرين في ضالة اللعب ، قبطانها هو الحاكم بأمره في تلك المملكة العائمة — وهي الحقيقة التي ظلت في خيلة لنسكون بعد عودته من رحلتهما التي استمرت طوال شهرين كاملين ، وما أن استقرا مرة أخرى في إنديانا الجنوبية في شهر يونيو حتى طلب إيب من صديقه ذي الثنوذ القوي ولیم وود أن يؤدي له خدمة هامة . يقول ولیم وود : جاء إيب ذات ليلة إلى منزلي ووقف أمامي في حياه وهدوء ففرت أنه يريد شيئاً ما . وسألته ماذا بك يا بني ؟ فقال لي أريد منك يا عمه ان تأتي معي إلى النهر وتوصي بي إحدى السفن لأبحر فيها .. لكنتني أجبته قائلاً : لكنتك لم تبلغ الواحدة والعشرين بعد يا بني .. فرد علي إيب قائلاً : أنا أعرف ذلك ولكنتني أريد أن أبدأ .. ومن أجل مصلحة أبراهام لنسكون نفسه لم يحقق صديقه له هذا الرجاء ، وهكذا لم يكن من المقدر للنسكون أن يصبح قبطاناً لإحدى السفن البخارية .

انكب أبراهام لنسكون المتبرم والمشاكس في بعض الأحيان ، على القراءة ، بشراهة عجيبة وهو يؤدي الأعمال التي كانت تطلب منه في قلق وتبرم .. واستمر في حكاية قصصه لمن يقابله ، واستعراض قواه الجسدية ، وكتابة بعض سخرياته . ويبدو أن أبراهام لنسكون حمل في نفسه ثأراً لعائلة جرجزبي لأنه آمن بينه وبين نفسه أن آرون جرجزبي — الذي تزوج من أخته ساره — كان مسئولاً إلى حد ما عن وفاتها أثناء وضعها طفلها الأول بإهماله .. ولكنه آمن من ناحية أخرى أن الوقت كان يمضي سريعاً وأنه لن

يبقى ليساعد أباه في المزرعة الفقيرة بجنوب إنديانا... لقد ظل ينتظر على  
أحر من الجمر علمه الحادى والعشرين لينعم بحريته وانطلاقه...  
وهكذا لم يكن لتكولن ليحس بالتعاسة ، عندما علم أن عائلته تستعد  
مرة أخرى للانتقال إلى حدود جديدة حيث منطقة البرارى السوداء الغنية  
في وسط إلينوى .

الفصل السادس

حدود اليمن



« وفي الحادية والعشرين من عمري جئت إلى إلينوى » .

## أ . لىكولن

لم يكن أبراهام لىكولن هو الوحيد في العائلة الذى كان يحس بالقلق وعدم الرضى فإن الوياء الذى حل من قبل ، عاد مرة أخرى إلى « ييجون كريك » وقتل أربع بقرات وأحد عشر عجلاً من مواشى دنيس هانكس في أسبوع واحد . وعاد توماس لىكولن فقيراً مرة أخرى كبدأ عندما جاء إلى إنديانا بعد أن بلغ الثانية والخمسين من عمره ، وهو الذى لم يحالفه النجاح في حياته من قبل ، عاد توماس ليستمتع والأمل الكبير برأوده من جديدة ، إلى الإشاعات التى كانت تتداول عن الأرض الجديدة الخصبة عبر نهر واباش بوسط إلينوى .

« أظن أن جون هانكس هو أول من شعر بالقلق ورحل إلى إلينوى وكتب إلينا من هناك أنه حصل لنا على أرض جديدة وطلب منا أن نذهب إليه ... » بهذه الكلمات تحدث دنيس هانكس عندما كان يستعيد الكلمات والأسباب التى دعت عائلات لىكولن وهانكس وهول وجونستون إلى الرحيل عن إنديانا .

ودائماً وأبداً ، كان يوم على أهبة الاستعداد للرحيل أينما شاء لأنه لم

يكن يمتلك شيئاً ذا بال يخلفه وراء ظهره . فالأرض التي يعيش عليها لم يكن قد دفع ثمنها بعد . وهكذا باع ما تبقى لديه من حبوب وماشية وحزم أمتعته في عربة تجرها الثيران . ورحلنا جميعاً نحن عائلات لنكون هانكس وجونستون ، وما زلت أتذكر أننا كنا كإحدى قبائل إسرائيل التي تبحث دائماً عن أرض كنعان أرض الميعاد . أرض اللبن والعسل على حدود بلاد الأباش الجديدة . وكما رأيت تلك الحقول السندسية عائلات قلقة مثلنا أثناء مرورها إلى الأراضي الجديدة . ولقد باع نوم لنكون أيضاً مزرعته بأى مبلغ أنت به . وودع أصدقائه وجيرانه وسرعان ما امتلأت العربات بالأدوات المنزلية والامتعة والنساء والأطفال . وبدأت العربات رحلتها المتعبة خلف الثيران المكشودة . وقاد إيب إحدى القوافل وكان يثير الضحكات مع كل ضربة من سوطه . وغالباً ما كانت أفكار لنكون الشاب تتوه في أمور جدية مثل خطبة دانيال ويستر في مجلس الشيوخ محذراً أنه لا يمكن ولاية ولاية أن تلغى أحد القوانين القومية . ولم يكن لنكون ليستطيع أن ينسى بعض الكلمات الرنانة في تلك الخطبة . الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، معاً لا يتجزأان .

تكونت القوافل من ثلاثة عشر مسافراً خلال القفار الباردة . نوم وسارة بوش جونستون ولكون وأبراهام ابن سارة ، جون جونستون وإليزابيث ابنة سارة التي تزوجت دنيس هانكس وأولادها الأربعة وما تلده الابنة الثانية لسارة وزوجها اسكوير هول وابنها الصغير . كانت الرحلة بطيئة ومتعبة بل مؤلمة أيضاً .

استمر الموكب في سيره البطيء شمالاً نحو مدينة تنسى في بلاد الأباش إلى تعد من أكبر مدن ولاية إنديانا ، وهناك عبروا النهر على طوافات ،

وبدأت أصعب مرحلة من رحلتهم الشاقة خلال تلك القفار، إذ كانت العجلات تفرز حتى منتصفها في الأرض الموحلة، لدرجة أن الرحلة أخذت منهم أسبوعين كاملين ليصلوا هناك. «كنا خلالها نشق طريقنا بالعربات خلال الغابات. وبعد الأنهار حيث كنا نسكر كلما أخذ منا التعب، وكانت الأنهار العذراء تسير في تلك الأنحاء المقفرة غير المأهولة، حتى أننا لم نشاهد على طول المسافة أي أثر لجسر بنته يد الإنسان. وكان كلب إيب الصغير ملازماً بإخلاص عربته طوال الطريق. لكن لسكون افتقد كلبه في إحدى المرات بعد عبور أحد الأنهار. وعند ما بحث عنه وجده في الناحية الأخرى من النهر لا يستطيع العبور بزغم شجاعته، وذلك لشدة برودة المياه. وقال إيب «لم أستطع تخيل فكرة ترك هذا الكلب وحيداً، فخلعت خذائى وشمرت بنظوفى وخضنت في المياه عائداً عبر النهر، وعدت وتحمل إيب الكلب الذى كان يرتجف من شدة البرد. وشعرت بارتياح عميق حينما رأيت الكلب يقفز حولي مرحاً، وكانت قفزات الكلب السعيدة هي مكافأتى عما تكبدته من مشقة».

أكمل لسكون عامه الحادى والعشرين في أحد أيام شهر مارس عام ١٨٣٠، عندما وصلت القافلة إلى الضفة الشمالية لنهر سنجامون عند التقاء منطقة الغابات بمنطقة الحشائش على بعد عشرة أميال من ديكاتور، وسرعان ما ابتدأ رجال القافلة الخمسة في بناء الكوخ الذى أمضى فيه أفراد القافلة الثلاثة عشر بقية ربيع وصيف وخريف عام ١٨٣٠ وشتاء عام ١٨٣١/٣٠ الذى لم يشاهدوا شتاءً أشد منه برودة وقسوة.

وفى تلك البقعة اكتسب أبراهام لقبه العجيب «فائق ألواح الخشب» فلم يكتف لسكون الصغير بفلق ألواح الخشب اللازمة لتسيور مزرعتهم

الجليدة البالية، مساحتها عشرة فدادين، بل اشتمل مع ابن عم والديه جون هاتكس في فلق أربعة آلاف لوح خشب للمستوطنين الآخرين. وأعمل بنشاط كبير في تنظيف وفلاحة الأرض البكر في ربيع عام ١٨٣٨، مستعملاً محراثه الكبير الذي كان يغوص في أعماق الأرض، فيقلبها رأساً على عقب. ولم كان سروره عندما نما القمح الذي زرعه وأخضر لونه ثم تحول إلى لون الذهب ووصل طوله إلى ركة الإنسان في بوليه وبلغ أقصى طوله ونضوجه في منتصف ربيع.

وفي عيد الميلاد من عام ١٨٣٠ بدأ الثلج يتساقط واجتاحت الرياح الباردة أرض الحشائش في قسوة وعنف حتى أن المستوطنين الذين كانت تقايمهم هذه الرياح وهم على بعد مئات الأقدام فقط من أكوامهم كانوا كثيراً ما يضلون طريقهم إليها ويتجمدون في الغابة حتى الموت وتبقى جثثهم هناك لتظهر مع السيول عند ذوبان الجليد في الربيع.

ولأيام عديدة استمر الغضب الأبيض يسحق أمامه كل حدود إلينوى. من يلا كل آثار الطرق والسكك. وسرعان ما أصبح ارتفاع الجليد ثلاثة أقدام، وتوقفت درجة الحرارة عند ١٢ درجة تحت الصفر. وكان يحكم بالقنأه على أي حصان أو بقرة تخرج من حظيرتها. وهكذا قضى على قطعان من الغزلان بأكلها وجدت فيها الذئب خير قوت تتغذى عليه، ثم تجمد عدد كبير من الذئب نفسها حتى الموت أيضاً. ولمدة تسعة أسابيع كاملة عاش أفراد القافلة في داخل كوخ لسكون على وجبات قليلة من خبز القمح وبعض الماء الذائب من الثلج واستطاعوا أن يحافظوا على حياتهم. ولكن خارج الكوخ لم يكن هناك أي أثر للحياة في ذلك العالم المقفر. ولم يجرؤ أحد بعد تلك السنة على أن يعود للتفكير في هذه المنطقة من إلينوى إذ أن





« سنة الصقيع » لم تترك لأحد الأمل في ذلك . ومع الأيام بدأ الدفء يعود والشمس تسطع من جديد فتذيب الثلوج .

كان كل الأفراد الذين عاشوا في كوخ لنسكولن تلك الفترة يتمنون أن يهربوا من ذلك المكان . ولم يمض زمن طويل حتى انتقل توم وسارة إلى مرطهم الجديد في مقاطعة كولز . أما إيب الذي أعطى والده شهوراً من العمل المنهك والتي تزيد عما كان يتطلب منه القانون ، فقد شعر أن الوقت قد حان ليتخذ طريقاً جديداً في هذا العالم معتمداً على نفسه . وقد كان في حاجة إلى وظيفة عندما وافته الفرصة في عرض « دانتون أوفات » الرجل الحالم الفشار الكبير ، أن يستأجره هو وابن زوجته أيه وجون جفستون وجون هانكس ، ليأخذوا حمولة قارب من المنتجات إلى نيواورليانز . واقترح عليهم أوفات أن يلحقوا به عند سبرنجفيلد بعد ذوبان الجليد ليبدأوا عملهم .

وتذكر نسكولن أنهم ما زالوا في أول مارس عام ١٨٣١ وكانت البلاد ما زالت غارقة في الفيضانات ، وكان السفر على اليابسة من المستحيلات ، لذلك اشترى هؤلاء الشبان زورقاً كبيراً وأبحروا في نهر سنجامون ، وكانت هذه هي أول رحلة لهم في هذه المقاطعة .

ولما قشروا في سبرنجفيلد على رجل أعمالهم المغامر وجدوه في فندق يحتمس الخمر ، ولم يكن معه قارب البضاعة المتفق عليه . فكان عليهم أن يبنوا هذا القارب ويبحروا به أيضاً إذا أرادوا الوصول بالبضائع إلى نيواورليانز . لذلك كان عليهم أن يعملوا عند أوفات بأجر قدره ١٢ دولاراً لكل منهم لقطع الأخشاب من الغابات وبناء القارب على ضفاف النهر في بلدة سنجامون . وأظهر نسكولن مهارته في قيادة فريق التجارين وفي الطهو لهم . واستغرق

منهم بناء ذلك القارب الذى بلغ طوله ثمانين قدماً ، وعرضه ثمانية عشر قدماً ، نحو شهر من العمل الشاق . وما أن انتهوا من صنعه جئى جلوه بالحبوب والبراميل المليئة باللحم المقدد ، ووجدوا صعوبة كبيرة فى تحميله ثلاثين خنزيراً لم تكن ترغب فى السفر . وأخذ كل ذلك بالطبع وقتاً طويلاً ، انحسر النهر خلاها عن القارب وأصبح المشروع كله ميتوساً منه عندما جنح المركب بحوار سد طاحونة رتلدج .

حدث هذا فى قرية ( نيو سالم ) التى أمضى بها لسكون ست سنوات لا تنسى من عمره . ويحتنب منظر لرب سكان قرية « نيو سالم » فيجتمعون على شاطئ النهر يشاهدون القارب المحمل وهو يتأرجح بخطورة على السد ، وكان يتولى مسئولية إنقاذه من ذلك الموقف شاب فى الثالثة والعشرين من عمره . يلبس بنظوناً أزرق ضيقاً وقيصاً مخططاً من القطن وقبعة من جلد الغزال ، وكان يخوض فى المياه حافى القدمين ، يفتش عن المكان الذى يدخل فيه الماء من مؤخر القارب الذى كانت مقدمته ترتفع إلى أعلى . ويدكرجون هانكس عن هذه المغامرة أنهم دحرجوا البراهيل إلى الأمام وصنعوا فتحة فى مؤخرة القارب الذى كان يرقد فوق السد . وهكذا نزح الماء من القارب وأنقذ الموقف . وكان صاحب الفضل فى ذلك إيب لسكون إذ أنه هو الذى وضع الخطة وهو الذى اقترض المثقاب الذى صنع به الثقب فى القارب ونزح الماء منه ، وبعد ذلك أعاد إغلاقه . وأتم لسكون كل ذلك والحشد الغفير على الشاطئ يراقبه ، هؤلاء الذين خرج منهم بعد ذلك أشخاص تركوا أثراً فى حياة لسكون ، منهم منتور جراهام الذى ساعده بعد ذلك فى تعلم فن السباحة ، وجاك أرمسترونج بطل المصارعة فى تلك الناحية الذى انتصر عليه لسكون فى إحدى المباريات وأصبح بعد ذلك أخلص أصدقائه وأكبر مشجعيه ، وأيضاً جيمس رتلدج الشريك فى طاحونة رتلدج ووالدآن رتلدج أجمل فتيات البلدة ، وجاك كاسو

الذي كان يحب الشرب وأصيد السمك وقراءة الكتب شكستير. وروبرت هينز الذي عرف لسكرولن بكثير من الكتب القيمة .

وكان منهم أيضاً بولنج جرين المرح الذي كان وزن ٢٤٠ رطلا والذي أصبح بالرغم من اعتناقه مذهبا سياسيا مخالفا لمذهب لسكرولن أكثر الجميع تشجيعا له - كل هؤلاء وكثير من أبناء البلدة كانوا يشاهدون بإعجاب القبطان الصغير وهو ينقد الموقف عندما اصطدم قاربه في السد .

ومهارة لسكرولن أكسبته أيضاً إعجاب رئيسه «دنتون أوقات» الذي أحبه بوثق أن من الممكن أن يستفيد منه ، وكتب معه عقداً حين عادوا من نيو أورليانز ليعمل كاتباً عنده ، وأعطاه بعض المسئولية في إدارة مخزنه في بلدة (نيو سالم) .

واستمر جون جونستون وجون هانكس ولاب لسكرولن ودانتون أوقات منحدرين في نهر سانجنامون المتعرج الصعب الملاحة حتى وصلوا إلى نهر إلينوى ومنه إلى نهر المسيسيبي حيث تخلف جون هانكس في بلدة سانت لويس ولم يتابع الرحلة معهم إلى نيو أورليانز .

ليست هذه الحادثة بذات بال إلا من زاوية واحدة ، فقد ذكر هانكس بعد ذلك أن أبراهام لنكولن شاهد فتاة خلابة جميلة تباع في سوق الرقيق في نيو أورليانز مما أثر في لنكولن تأثيراً كبيراً حتى إنه عاهد نفسه إذا أعطى الفرصة لضرب تجارة الرقيق فإنه سينهز الفرصة ويضرب بشدة .

وبما لاشك فيه أن لسكرولن كان سيستلم لرؤية سريع تجارة الرقيق ، وأن مثل هذه الحادثة قد فتحت عينيه أثناء رحلته إلى نيو أورليانز — ولو لم يكن جون هانكس مع لنكولن في ذلك الميناء الجنوبي لما كان

— ٦٧ —

تشهادته هذه القيمة الواضحة . ولم يستطع لنكون أن يجاهر برأيه علانية  
في الرقيق إلا بعد ذلك بسنوات .

وعندما عاد ليبي إلى موطنه في إلينوى بعد انتهاء رحلته الثانية في نيو  
أورليانز شق طريقه إلى بلدة (نيو سالم) . وكم كان رئيس الولايات المتحدة  
المقبل قانعاً بوظيفة كاتب في مخزن خشبي في قرية لا يتعدى عدد سكانها  
مائة مستوطن !



## الفصل السابع

قرية "نيونالم" وحرب القصر الأسود





« ووصلت إلى قرية «نيو سالم» .. حيث اشتغلت هناك كاتباً في مخزن ..  
وبعد أن نشبت حرب الصقر الأسود انتخبوني قائداً لفرقة من المتطوعين .  
وبهذا الفوز شعرت بسعادة لم أشعر بها من قبل .. »

## أ . لنكولن

اعتبر إيب لنكولن نفسه عندما وصل إلى قرية ( نيو سالم ) في أواخر  
يناير ١٨٣١ كأنه قطعة من الخشب منساقة مع التيار لا يعرف له طريقة . ولم  
يكن يتقن أى عمل سوى القليل الذى تعلمه عن الزراعة والتجارة وقيادة  
القوارب . وكان مازال بدون هدف محدد ، بدون طموح مركز أو موهبة  
محددة . ولكنه بعد أن ترك تلك القرية بعد ذلك الوقت بستة أعوام ليستعد  
لممارسة القانون كمنام شاب ناجح ، كان قد بدأ طريقه نحو هدفه العظيم .  
ولكننا بذكر هذه التفاصيل نسبق الحوادث قبل وقوعها .

بعد وصول لنكولن واستقراره بقليل بدأت انتخابات أغسطس .  
ولأول مرة باشر لنكولن حق الانتخاب . وكان في تلك القرية أثناء ساعات  
الطعام بسلي الموجودين بنكاته وقصصه الغريبة التى أثارت انتباه كل الموجودين ،  
وهكذا أصبح هذا الشخص الطويل الودود محبوباً من جيرانه الجدد .

واستفاد لنكولن من الأسابيع العديدة التى كان ينتظر فيها وصول  
البضائع التى وعده بهار دانتون أوفات ) ، للمخزن الموجود على شاطئ

النهر في التعرف على القرية الجديدة وسكانها . وكان جيمس رتلدج وجون كامرون قد استقر في القرية قبله بعامين وأقاما فيها الطاحونة الوحيدة . وامتلاً أحد جانبي شارع القرية الوحيد بحوالي اثني عشر كوخاً تموج بسكانها من الرجال والنساء والأطفال ، وسرعان ما أصبح لهذه القرية حداد ، وصانع أحذية ، وصانع براميل ، وتاجر لحوف ، وطبيبان لتجبير العظام . واجتذبت حانة وليم كلاري عدداً من المستوطنين لا يقل عن العدد الذي اجتذبتة الصلوات التي كان يقيمها المبشرون النظاميون والعمدانيون والمشيخيون . ولكن الحانة هيأت كذلك للشباب حالة نفسية لمقاطعة هذه الصلوات .

وما أن وصل دانتون أوفات إلى ( نيو سالم ) بالبضائع ، حتى كان لشكولن على صلة طيبة بجميع القرويين . وبقي أمامه أن يكسب احترام أبناء ( مجروف ) الشباب الذين كانوا يأتون إلى القرية في جماعة مساء كل سبت ، مندفعين كأنهم الهنود ، يشربون استعداداً لقتال كل من يتصدى لهم . وكانت حانة كلاري التي تبعد مسافة ثلاثين خطوة من مخزن دانتون أوفات هي مركز التجمع في ( نيو سالم ) لهذه الجماعة التي كانت تتنافس متسابقة بغضب إما على ظهور الخيل وإما على الأقدام . أو كانوا يظهرون براعتهم في الوثب ورمي المطرقة أو المصارعة من أجل حب القتال وحسب .

كان أوفات رجلاً قصيراً محباً للزهو ، ولم يكن ليحمل دقيقتين في المشاجرة مع أحد أبناء كلاري جروف . لكنه كان يتفاخر دائماً بأن الكاتب الذي يعمل عنده وهو إيب لشكولن يستطيع أن يهزم أيًا منهم في مبارزة للمصارعة ، حتى إنه تراهن مع أحدهم بخمسة دولارات ليثبت صحة مايقول . وما أن عرفت قرية نيو سالم بأن جاك أرمسترونج بطل أبناء

جزوف ، الذى كان معروفاً بأنه أحسن مقاتل ومصارع فى كل تلك المنطقة سوف يتصارع مع عملاقهم الجديد إيب لنكولن ، حتى ابتداء كل من بالقرية فى المراهنة على من منهما سوف يكتسب الصراع .

وتمت هذه المصارعة المشهورة مساء يوم سبت وهى التى كتبت فيما بعد نصراً سياسياً للنكولن . فى حلقة من المشاهدين المتشوقين لرؤية المصارعة ، تلاطم جاك وإيب وتماسكا كل يبحث عن نقطة الضعف فى زميله . ومع أن جاك كان أقصر من إيب إلا أنه كان مفتول العضلات ، وكانت بنيته قوية كالثور ، وعضلات كتفيه وفخذه تلمع تحت أشعة الشمس . وكانت عضلات لنكولن قوية كالعنزة لكنه كان يعلم أنه يواجه خصماً قوياً أيضاً .

واختلفت الروايات فى كيفية انتهاء المصارعة ، ولكنها أجمعت كلها على أن إيب استطاع بعد صراع عنيف أن يوقع جاك بكل جدارة . وما ان فعل ذلك حتى التف حوله كل جماعة كلارى أجروف ، فأسند إيب ظهره إلى حائط لتتاح له الفرصة لملاقاتهم جميعاً واحداً واحداً . لكن أرمسترونج الذى أثبت أنه رجل رياضى نهض من الأرض ودفع رفاقه جانباً وسلم على لنكولن بيده ، وأصبح مع زوجته حنا أصدقاء لنكولن مدى الحياة ومن أكبر مشجعيه السياسيين . ورد لهم لنكولن هذا الجمل بخدمات ما كانوا يحملون بها . ولما استطاع لنكولن أن يثبت أنه يستطيع أن يتغلب على كل من بالقرية فى الجرى والقفز ورمى المطرقة ، بدأ الجميع يتقبلون قيادته بسهولة . وبالرغم من ذلك فإن أحداً لم يلاحظ عليه أنه كان يشرب أو يقامر أو يتباهى بقوته .

كان رجال مناطق الحدود يعجبون بالعقل كما يعجبون تماماً بالعضل . جد إلى حال الستة المتعلمون فى تلك القرية عدة فضائل فى لنكولن إلى

جانب قواه الجثمانية . وتطوع المدرس منتور جراهام بسرور لمساعدة ليب في النحو والرياضيات . وحبب جاك كاسو ، الذي كان يكتسب معيشته من صيد السمك وإلقاء الشعر ، لنكولن في روايات شكسبير وشعر روبرت بيرز . ووجد لنكولن فرصته الأولى الجدية للخطابة في الجمعية الأدبية المحلية . ولم أعجب جيمس رتلج والدكتور فرانيس رائيه . بفصاحة لنكولن وبلاغته ، وتحقيقاً من أن لنكولن الصغير يحتاج إلى قليل من التدريب والصقل لتنمية مواهبه ، وليصبح متحدثاً بارعاً ومؤثراً .

وأثبت لنكولن في مجال واحد فقط عدم كفايته إذ لم يستطع في مخزن أوفات ان يثبت أنه رجل أعمال ناجح . حقيقة إن الناس أجبره لدهائة خلقه ومودته وأمانته ، لكن لنكولن كان أكثر اهتماماً بقراءة الكتب وحكاية القصص أكثر من اهتمامه ببيع الملع والسكر والشاي . وسرعان ما يئس أوفات من نجاح بيع محتويات مخزنه وترك القرية بحثاً عن تجارة أخرى . وما أن جاء الربيع حتى أصبح لنكولن بدون عمل ثابت . وبناء على اكتساب لنكولن عدة صداقات خلال الشهور السبعة التي قضاها في نيو سالم ، فقد أعلن بكل ثقة في التاسع من مارس عام ١٨٣٢ . أنه سوف يرشح نفسه في الانتخابات القادمة لمجلس الولاية .

كتب لنكولن أول خطبة سياسية له بمساعدة منتور جراهام وآخرين . وبالرغم من قصرها إلا أنها استحوذت على ناخبي مقاطعة سنجامون . وكان صريحاً في مؤازرة هنري كبي معارضاً لآندرو جاكسون الشهير . وبنى خطبته على حقائق من الواقع الحى الذى كان يحيط بالقرية ، فطالب بتخفيض نسبة الربح على القروض . وبالطبع كان معظم الناخبين مدنيين ، وطالب بإعطاء فرص أكبر للثنام . ولم يكن هناك مدارس بالمعنى المفهوم ، وطالب

بتحسين المواصلات في نهر سنجامون إذ كان يعتقد أن السفن من نحولة ٣٥ إلى ٤٠ طنناً يمكنها أن تصل إلى فورك الجنوبية على نهر سنجامون . وأنهى خطبته الأولى بفقرة كسبت له تأييداً كبيراً . . . فقد قال . . .

« لقد ولدت وبةيت أعيش في طرقات الحياة المتواضعة . . . وإذا شاءت حكمة الشعب الطيب أن يبقيني بعيداً فإنني قد تعودت تحمل خيبة الآمال . . بدون ألم . . صديقكم المواطن . . أبراهام لنكولن . . »

وكانما لتأكيد أهمية النقل النهري الرخيص ، اهتمت قرية نيو سالم وكل القرى المحيطة بها بخبر وصول المركب البخاري « تالزمان » بقيادة القبطان فنسنت بوج ، وكانت تحمل بضائع من سانت لويس . ورسى السفينة على شاطئ نهر سنجامون على بعد ستة أميال شمال بلدة سبرينجفيلد . وكانت الأجرة التي تقاضتها هذه السفينة هي ٣٧ سنتاً لكل مائة رطل . وكان هذا المبلغ يمثل نصف ما يكلفه النقل بالبر . وتخيل المزارعون مقدار الرخاء الذي سيأتيهم إذا ما استطاعوا شحن بضائعهم ومنتجاتهم بهذا الرخص من إلينوى وإلها .

ولقد كان الفضل لايب لنكولن مرشح المجلس التشريعي بالبلدة في أن يقود فريقاً من الرجال ، يتسلحون بالعصى والفؤوس الطويلة ويسيروا أمام السفينة يشذبون الطريق من الأغصان المتدلية . وكان من بين المشاهدين لهذا النشاط على الشاطئ الشاب بيلي هزندون البالغ من العمر ١٣ سنة ، والذي أصبح فيما بعد شريكه في العمل بالقانون وكاتب قصة حياته والمعجب به كبطل . ولم ينس ( هزندون ) أبداً قيادة لنكولن للرجال الذين كانوا يفتحون الطريق أمام ( تالزمان ) بفؤوسهم .

وما أن وصلت السفينة تالزمان حتى قوبل طاقم السفينة بعاصفة من الترحيب . وأفرغت شحنة السفينة، وأكملت سيرها منحدرة في النهر . ولكن لسوء الحظ لم يكن النهر عميقاً، واستطاع لسكولن الذي كان مساعداً للقبطان أن ينجح في العودة سالماً بالمركب بعد أن يتكبد الكثير من المشاق .

وخبت الإثارة التي كانت قد صاحبت وصول السفينة تالزمان . وكان السبب في هذه المرة موجة من الخوف والهلع اكتسحت كل تلك المنطقة . فقد بدأ الصقر الأسود، الزعيم المقدس لقبيلتي السالك والفيكر ، في تجميع قواته التي بلغت نحو أربعائة محارب هندي مسلح ، عبر بهم نهر المسيسيبي وأصبحوا يهددون المستوطنين البيض لاسترداد حقول القمح التي كانت تبعمهم من قبل . وقد يشعر الإنسان بالشفقة من أجل هذا القائد الشجاع وقبيلته التي حرمت الغنى والحقول التي أعطت شعبه الحبوب لمدة طويلة من قبل . فلقد اعتقد الصقر الأسود من خلال خبرته أنه لا يمكن بيع الأرض إذ أنها هبة الروح العظيمة لأولاده ليعيشوا على إنتاجها . وماداموا يعملون ويزرعون في هذه الأرض فإن لهم حقاً فيها . وفي اعتقادهم أن الشيء الذي لا يمكن حمله لا يمكن بيعه . لكن الصقر الأسود بخزعة المعاهدة التي كان قد وقعها من قبل ، ومهما كانت عدالة مطالبه فإنه أصبح السبب في موت المستوطنين بالرصاص وجز رؤوسهم . ومن مناطق المستوطنين في شمال إلينوى جاء الرسل في طلب المساعدات الحربية بإلحاح . وأذاع محافظ إلينوى نداءً لجميع المتطوعين الذين سرعان ما تجمعوا وانتخبوا لسكولن قائداً لفرقته ، بمساعدة نفوذ أولاد كلاري جروف الذين أصبحوا من أشد المحبين به . وعين إيب جاك أرمسترونج باشجوايشاً لفرقته . وكما حكى لسكولن ورفاقه الحكايات المضحكة عن طبيعة قياداتهم غير العسكرية . وكان رجاله متطوعين ذوي طبيعة جيدة غير حليقي الذقون ، ومن الصعب



تعويدهم على النظام . واستطاع لنسكون المسيطر عليهم أن يؤكد لهم أنه سيقا تل شخصياً كل رجل يخرج عن طوعه ، ولم يكن هو ليحرف الكثير عن المصطلحات الجارية عند ما اقتربت فرقته من بوابة ضيقة لم يستطع أن يفكر في الأوامر التي يمكن أن يعطيها لهم للتقدم عبرها سوى أن يصرخ فيهم قائلاً : « قفوا » . سوف تنسى هذه الممرقة لمدة دقيقتين رتب أفرادها العسكرية حتى يجتمع مرة أخرى في الناحية الثانية من البوابة .

لم يكن لنسكون ولا أى واحد من فرقته قد رأوا محاربى الصقر الأسود أو سمعوا أصوات طلقات البنادق طلباً للحرب . ولقد أنقذ إيب ذات مرة حياة هندی طاعن في السن كان قد أتى للمعسكر بتصريح للمرور . لكنه كان في خطر من أن يطلق الجنود عليه النار . ومرة أخرى ساعد لنسكون وفرقته في دفن خمسة من الرجال المليشيا كانوا قد قتلوا في موقعة كالوج جروف . ولن ينسى لنسكون كيف كان منظر هؤلاء الموتى وفي رأس كل منهم بقعة حمراء مستديرة مكان أثر جز فروة الرأس . كان المنظر مخيفاً واشعة الشمس الحمراء تغطي كل شيء ، وكان أحدهم يلبس بنطلوناً من جلد الغزال .

وفي ذات الوقت كان الصقر الأسود قد وقع في كين وانهمزم ، فأسر وسبق إلى واشنطن العاصمة حيث وقف منتصب القامة مرفوع الرأس أمام الرئيس اندرو جاكسون وقال له « أنا زعيم مثلك . لقد حملت بلطى لأثار من الإهانات التي لم يعد شعبي يحتملها . ولو طال صبري لقال شعبي إن الصقر الأسود أصبح مسناً وأنه لم يعد من قبيلة الساك » .

وقد سرق حصان لنسكون منه أثناء إقامته بمعسكره في جنوب وسكنسون ، وقد كان عليه أن يذهب إلى قرية نيوسالم إما على الأقدام



وإما في زورق . وقد هزأ أبراهام لنكولن بعد ذلك بسنوات ، في إحدى خطبه في مجلس الشيوخ ، من لويس كاص مرشح الحزب الديمقراطي للرئاسة الجمهورية ، وسخر من السجل العسكري الخاص به بيد أن تاريخ لنكولن العسكري في قرية نيو سالم ، نظراً لقصر مدته ، لم يساعده كثيراً في حملته الانتخابية للمجلس التشريعي للمقاطعة . ومع ما تبقى من الوقت القصير ، زار إيب كل البلاد يتحدث إلى المزارعين ويساعدهم في جني محصولهم من الحبوب ويخطب فيهم أحياناً ، وفي بابسفيل حينما كان يخطب في مزاد علني لبيع المواشي ، اضطر لنكولن إلى أن يقطع خطبته ليخرج من الجمهور أحد المشاعبين . ثم عاد إلى المنصة كأن شيئاً لم يحدث . كانت خطبته القصيرة التي ألقاها ذلك الوقت مثلاً يحتذى به السياسيون وجديرة بدراستهم . قال :

« أيها المواطنون . أنا أعتقد أنكم تعرفونني جميعاً . أنا أبراهام لنكولن البسيط . ولقد طلب مني كثير من الأصدقاء أن أرشح نفسي لعضوية مجلس الولاية . وبرنامجي السياسي قصير وهام . فأنا في جانب إنشاء بنك أهلي ، وإصلاح النظام الداخلي وفرض تعريف عالية لحماية منتجاتنا . هذا هو شعوري نحوكم . وهذه هي المبادئ السياسية التي أعتنقها . فإذا قتم بانتخاني ، كنت لكم من الشاكرين . . وإذا لم تنتخبوني كنت أيضاً شاكراً » .

سقط لنكولن في هذه الانتخابات . وكانت هي المرة الوحيدة التي يسقط فيها لنكولن في انتخابات مباشرة يقوم بها الشعب . لكنه فاز بـ ٢٧٧ صوتاً من أصوات دائرته ضد سبعة فقط . وأصبح لنكولن فعالاً أشهر رجل في قرية نيو سالم بأكلمها .

شعر إيب لنكولن المتواضع بالسعادة تغمر قلبه لأنه في صيف عام ١٨٣٢ عرف مقدار حب الشعب له .



## الفصل الثامن

صاحب المهن المختلفه



« تالشي المتجروى طرفة عيبا . »

أ . لنكولون

عمل لنكولون خلال السنوات الخمس التالية صاحب خانوت ورئيساً لمكتب البريد ، ومساحاً ومقرراً لاجتماعات مجلس الولاية . ثم رخص له بالعمل في الحمامة . ولقد نجح في جميع هذه الأعمال باستثناء أولها . وعلى كل حال فقد كان سوء الحظ فيما يتعلق بأعمال الخانوت حتى إنه رغم بدئه مفلساً غادر قرية ( نيو سالم ) إلى سبرنجفيلد عام ١٨٣٧ وهو مدين بما يقرب من الألف دولار .

من المحتمل أن إيب تذكر المركز المحترم الذي كان يشغله جيمس جنتري صاحب المتجر في إنديانا ، فعل على أن يصبح مثله تاجراً .. ومن المؤكد أنه كان يسر متع وهو خلف طاولة البيع بالتصالات المستمرة مع جيرانه ، بفرضة سرد الحكايات عليهم . وفوق كل هذا فقد كانت هناك فرصته الكبرى في تمتعه بالرقاد على طاولة البيع وقدميه تستندان على الحائط فوق مستوى رأسه يقرأ كل كتاب يقع بين يديه الضخمتين الحشنتين من جراء الأعمال اليدوية التي مارسها .

وقد ذكر لنكولون فيما بعد أنه كان شغوراً بالبقاء في قرية نيو سالم بين

أصدقائه الذين عاملوه « بمنتهى الكرم والذبل » ، ولقد فكر أن يتعلم مهنة الحدادة ، كما ذهب تفكيره إلى دراسة القانون مع علمه بأنه لن ينجح في ذلك دون دراسة أفضل .

وكانت دهشته — وقت أن كان بلا عمل وبجاجة إلى إبقاء الروح والجسد معاً على قيد الحياة — عندما عرض رجل أن يبيع — ولقد باع فعلاً إلى لسكون وإلى رجل فقير آخر مثله — كمية من البضائع القديمة على الحساب . وافتتحا بهذا عملهما كتاجرين .. وطبعاً لم يفعلوا شيئاً سوى إمعانهما في الديون .

ومن كثرة ترديد قصة المتجر الذي « تلاشي في طرفة عين » ، أصبحت تلك القصة تبدو كأسطورة . لكنها قصة واقعه . فقد انكب شريكه ولیم ف . بيرى على عب الويسكي من البراميل ، في حين انغمس لسكون إلى أذنيه في قراءة الكتب ، وإذا توصل الاثنان إلى إفلاس المتجر في بضعة أشهر . غير أن إيب — الرجل الأعين — الذي كان يفضل السير أميالاً على ألا نزداد عبئاً بسننجات قليلة — وجد نفسه مثقلاً بالديون حينما أفلس المتجر . وبعد عدة سنوات من العمل الشاق المضنى سدد إيب كل تلك الديون .

وكانت لوحة الإعلانات في حانة ( راتلج ) قبلة لسكون لرغبة في الحصول على أى نوع من العمل المؤقت ، كحشق القضبان أو درس القمح أو كاتب بالمتجر الجديد الذى كان يديره ا . ي . أليس ، لكن لسكون عينه في السابع من مايو ١٨٣٣ رئيساً لمكتب البريد في قرية نيو سالم ، وهى وظيفة لجزء من الوقت ربما من خمسين إلى خمسة وسبعين دولاراً سنوياً . غير أنها هيأت له أيضاً ميزة الاطلاع على جميع الجرائد التى كانت ترسل بالبريد إلى المشتركين بالبريم .

وهناك في ولاية إنديانا اشتهر إيب بأنه (رجل الأخبار) لتلاوته موجزاً لكل الأنباء التي كان يتمكن من تذكرها من الجرائد التي كان يقرأها بشغف . واشغفه بجمع المعلومات عن العالم والشؤون الدولية والمقالات السياسية ، واصل لنكون استيعابه لما كانت تحويه مختلف الجرائد مثل جريدة (ميسوري ريبابليكان) في ولاية سانت لميس ، وجريدة (ميسيفيل) وجريدة (ناشينال انتليجنسر) في واشنطن ، وجريدة (سانجامو) في سبرينجفيلد وكان غالباً ما يرى في قرية نيو سالم وسط مجموعة من الناس يقرأ لهم بصوت مرتفع إحدى الجرائد التي لم يتسلمها صاحبها بعد من مكتب البريد .

كان يتهج لنكون أن يقوم بتوزيع الخطابات وهو في طريقة كلباطاب . مزاجه لذلك . وكان يضعها في قبعته التي أصبحت على مر السنين حقيبة ملائمة للذكريات القانونية والمستندات ومختلف المراسلات ، وباختصار كل شيء . بود صاحب القبعة أن يكون في متناول يده . وكان على إيب كلما رفع قبعته لتحية سيده أن يحرص على ألا يكون قد أسقط منها شيئاً من الورق .

ومن الواضح أن أبراهام لنكون الشاب لم يدخر ثروة في قرية نيو سالم . إذا ما انصب حديثنا عن المال فقط . لكنه كان يدخل ثروات أخرى . كلها فكرية . قواعد اللغة والرياضيات . وفي مدة وجيزة قواعد المساحة ومبادئ القانون .

ويكاد المرء يعتقد في قرية نيو سالم أنها قد خلقت بطريقة سحرية لغرض واحد هو مساعدة أبراهام لنكون ليتطور إلى الرجل الذي صار إليه أخيراً . تلك المدينة الصغيرة التي تأسست قبل وصول لنكون إليها بعامين فقط ، واختفت بعد مغادرته لها بعامين من الخريطة بطريقة مؤثرة .

وكانما كان ذلك إثر إشارة من عصا بعض السحرة . فلقد ظهرت أكواخ خشبية على أعلى ( سنجامون ) وكانما استدعت إشارة من عصا السحرية مجموعة من الممثلين من خلال الهواء الرقيق ( كما في مسرحية « العاصفة » لشكسبير — التي قد يكون جاك كيلسو قد قرأها على لنكولن في بعض الأمسيات الساكنة ) .

وبينما كان هؤلاء يسكنون في أكواخهم بقرية نيو سالم ، فإن هذه الشخصيات في درامة لنكولن كانت من المؤكد حقيقية . وغالباً ما لعبت دوراً هاماً في تطوير حياة إيب . فمثلاً كان مساح قرية سانجامون وهو جون كاهون من سبرنجفيلد ، هو الذي عرض على لنكولن وظيفة مساعد له في إقامة حدود للمزارع ، وإنشاء المدن ومسح الطرق الجديدة . ولم يكن إيب يدرك شيئاً عن هذه المهنة . وعلى ذلك فقد ذهب ليقم مع المدرس منشور جراهام الذي كان يجلس مع لنكولن كل ليلة شارحاً له طريقته فلنت في الهندسة .. ليبحثاً معاً دراسة ( جيبسون ) المساحة العملية . واشتكت ساره زوجة جراهام أن زوجها ولنكولن يتحدثان بجوار المدفأة تاركين إياها مستيقظة حتى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل .

وبعد بضع سنوات كان جراهام يشيد بأنه خلال حياته الطويلة كمدرس لم يكتشف أحداً يتعلم في سرعة لنكولن « المولع بالبحث ، والشاب المطلع إلى الأمام سعيّاً وراء المعرفة والآداب ، متفوقاً على أى شخص آخر من بين الآلاف الخمسة الذين قمت بتعليمهم بالمدارس » .

وسرعان ما تمكن لنكولن خلال الضباب الكثيف ، مستعيناً بالوصلة والسلاسل من اختراق النباتات المتشابكة واللابل السام ، لإزالة الأعشاب البرية ، وإزاحة



الكتل الخشبية، والخوض في المستنقعات أثناء تخطيطه للزراع والطرق في أواسط ولاية إلينوى. وكان يتقاضى دولارين وخمسين سنتاً في مقابل مسح قطاع (حوال مائة وستين فداناً) بالإضافة إلى دولارين يوماً للبصايف التي كان يتكبرها. لكنه لم يكن في أغلب عملياته يتقاضى أتعابه نقداً. ففي بدء أعماله كانت مكافآته عن إحداها وعلين أو على الأصح جلدیهما اللذين قامت حنا أرمسترونج زوجة جاك باستعمالهما في ترقيع سراويله لنقيها شر التفرق من الأشواك وفروع الأشجار الجافة التي كانت تحتك به أثناء قيامه بالعمل.

ولم تكن أى من هذه الوظائف أو كلها مجتمعة معاً لتكفي لنكون في حياته ولتسد ديونه أيضاً. وإمعاناً في البؤس الذي كان يلاحقه، تم الحجز على حصانه والسرج واللجام وآلات المساحة بواسطة أحد الدائنين وبيعت في المزاد العلني. ولحسن الحظ رسا المزاد على صديق فأعادها إلى إيب دلالة على إيمانه بالمساح الشاب المكافح.

اعتزم لنكون في بداية عام ١٨٣٤ مرة أخرى، ترشيح نفسه للمجلس التشريعي للولاية. وانتخب بمساعدة كل من الديموقراطيين والأحرار. وكان بولنج جرين مؤيده الديموقراطي بينما كان جون پ. ستیوارت المحام الشهير في سبرنجفيلد ومرشح الأحرار في الجمعية العمومية يدير الاستراتيجية في حزب لنكون الخاص. وأصبح ستیوارت كذلك متولياً لأمور لنكون في المهام الأخرى، بوجهه للسير في أصعب الخطايا في سياسة الدولة عندما انعقدت الجمعية في فانداليا في ديسمبر التالي، ويبحث لنكون على قراءة القانون معبراً إياه الكتب اللازمة. وانتهى من ذلك بأن جعل من إيب شريكاً له في المحاماة بعد مرور سنوات قليلة.

ومنذ ذلك الحين، بالإضافة إلى جميع دراساته الأخرى، صار لنكون

يقرأ تعليقات ( بلا كستون ) ومرافعات ( شيتي )، محاولا استيعابها كدعامتين كلاسيكيتين في التدريبات القانونية .

واستمر إيب في غضون خريف سنة ١٨٣٤ في مسح الأرض وقبول وظائف شاذة. ثم اقترض مائتي دولار من صديقه كدليمان سموت ، واشترى بستين دولاراً منها أول بدلة حاكمها له ترزى واستعد لإظهار نفسه داخل دار الجمعية العمومية في فانداليا ثم في عاصمة ولاية إلينوى .

وفي تلك الأيام — في أواخر نوفمبر والطرق مليئة بالآوحوال — حينما كانت عربة المسافرين المملوطة بالآوحوال تتأرجح عبر مروج قرية فانداليا النائبة على طريق كامبرلاند غير الممهّد ، لم يكن هناك ما يثير اهتمام المشاهد سوى مبنى المجلس التشريعي ذى الطابقين . ووصول أعضاء المجلس التشريعي وعائلاتهم بسبب انعقاد الدورة الحالية للمجلس . أما بالنسبة إلى لنكولن الذى لحق بستيوارت إلى الحانة حيث قررا الإقامة بها فكانت هذه المدينة ذات الستائة نسمة مجالا للفرص المتألقة .

ولا جدوى من تتبع هذا العضو الجديد في مجلس الولاية من مقاطعة سانجيامون خلال الدورات الأربع التى اشترك فيها بالمجلس التشريعي لولاية إلينوى . ففي الحقيقة كان إيب يتعلم مبادئ السياسة في مدرسة شاقة . ولكن ما يمكن أن يحكم به مراقب غير منصف هو أن يقول إن ما أحرزه لنكولن من تقدم هو انتقاله من « شق » الأخشاب إلى « دحرجتها » . ودحرجة الأخشاب في غز السياسة الأمريكية معناها رد الجمل . فهو يصوت لمسألة يبنى تمريرها سياسى آخر في مقابل ما يسديه له هذا السياسى من معروف مائل . ومن سوء الطالع أن السياسيين في هذه الأيام يقدمون على نفس هذه الاتفاقات مثلما كان الحال في عهد لنكولن .



وخلال السنوات الثمان الى قضاها لايب عضواً في المجلس التشريعي وصل إلى مركز « زعيم الأقلية » مسيطراً على سياسة ولايته . وغالباً ما كان قادراً على حيازة الضغط الشديد للتأثير على أعضاء المجلس الآخرين حينما كان يرغب في تمرير تشريع ما .

وولاية إلينوى مثل أى ولاية أخرى في ذلك الوقت كانت تقدم في هوس على الإصلاحات الداخلية . فقد كانت الطرق والقنوات وخطوط السكك الحديدية مطلوبة بالحاح داخل الحدود كما . ولكن في سنة كانت فيها ميزانية الخزائن في ولاية إلينوى ألني دولار فإن أقصى حالات الجنون تبدو في التصويت على مشروعات القنوات والمواصلات الأخرى التي تتكلف الملايين من الدولارات .

وفي خلال السنة الثالثة لعضوية لنكولن ، استغل كل قواه السياسية الخارقة لتكبتيل الجمهور من أجل إنشاء الطرق الحديدية التي كانت تحتاجها كل قرية من قرى ولاية إلينوى .

ولسكونه رئيساً على « التسعة الطوال » من قرية سانجامون ( سبعة من أعضاء المجلس التشريعي وعضوان من مجلس الشيوخ بالولاية ، طول قامة كل منهم ستة أقدام ) وكان لنكولن أطول من بالجموعة ، انتفع بتمائل طول وقوة هؤلاء الرجال الكبار للسيطرة بقوة على المجلس . فقد طالب الديموقراطيون بوسائل المواصلات الجديدة ، وطالب لنكولن وأصدقائه بانتقال العاصمة من فانداليا إلى سبرينجفيلد . وكانت الدرجة دائماً تعطى النتائج المرغوبة . فقد تم التصويت على الطرق والقنوات والسكك الحديدية . وكذلك تغير موقع عاصمة الولاية . واحتفلت سبرينجفيلد بانتصارها العظيم على فانداليا . واحتفى هناك بلنكولن الذي عمل كثيراً لتحقيق غاية سبرينجفيلد . كما لو كان بطلاً .

تعرف لنكولن أثناء وجوده بفانداليا برجلين أصبحا فيما بعد من خصومه السياسيين . أحدهما كان جيمس شيلدز ، الذى تمهدى لنكولن ذات يوم للمبارزة . بينما كان الآخر هو ستيفن أ . دجلاس ، وكان قصيراً مكنتزاً شرساً ولماحاً فى نفس الوقت . لم يكن مقبولا البتة . وقد واجهه لنكولن فى سلسلة من المناقشات المشهورة فى أواخر عام ١٨٥٠ والتي كانت تدوى أنبامها عبر القارة كلها . . وفى مأدبة عشاء أقيمت فى إحدى الحانات راقب لنكولن شيلدز ودجلاس وهما يرقصان الفالس فوق المنضدة الطويلة بين صيحات الساسة المشهورين . وفى اليوم التالى دفع شيلدز ستائة دولار قيمة ماتشم من أطباق وأوان زجاجية فى ذلك الوقت الذى كان يكفى منه ذلك المال لشراء مزرعة كبيرة وخصبة فى نفس الوقت .

وإذا كان لنكولن قد زاول السياسة « عملياً » . فلا يفهم من ذلك أنه لم يتشبث أيضاً بكثير من أحلامه ومثله العليا . فمع الإصلاحات الداخلية وإعادة عاصمة الولاية إلى مكانها ، وجد لنكولن الفرصة ليعبر جهرأ عن آرائه فى الرق — وهى الآراء التى لم تتغير فى السنوات الأربع والعشرين التالية للإقلال . وقد جعل المجلس يدرك شعوره بأن الرق يقوم على الظلم . والسياسة الخاطئة ولكنه لم يناد بإلغاء الرق . ولم يكن يشعر بأن للحكومة الفيدرالية الحق فى التعرض للرق فى تلك الولايات التى كانت قد انتشرت فيها قبل ذلك ، ولكنه كان يدرك أن الكونجرس يمكنه إلغائه فى مقاطعة كولومبيا .

وهكذا رغم حداثة سنه، بدأ لنكولن يعبر عن عقيدته بأنه لا يجب السماح مطلقاً لشر الرق أن يتفشى .

وعودة إلى قرية نيو سالم ، حيث كان لنكولن يقضى الأشهر بين دورات المجلس التشريعى للولاية ، كانت تعيش هناك فتاة زرقاء العينين ذات شعر أسود

مائل إلى الحمرة تدعى آن راتلدج ابنة جيمس راتلدج ، وهى التى كان من المقرر لها أن تتزوج من يدعى جون ماكنيل ( وكان اسمه الحقيقى ماكنهارا ) ، الذى دخل عام ١٨٣٢ إلى الجنوب ليرتب شئون أسرته . وكان من المعلوم أنه سوف يعود للزواج من آن بمجرد الانتهاء من مأموريته . ولكن مع مرور الوقت توقف ماكنهارا عن الكتابة إلى خطيبته ، وانقضت سنوات ثلاث طوال ، ولم يكن لأحد أن يلم أياً من آن وإيب على اعتقادهما أن ماكنهارا قد غير رأيه .

ولكن هل تقدم لنكون لخطبة آن ؟ وهل وافقت هى عليه ؟ وهل كانت وفاتها عام ١٨٣٥ ضربة قاضية إلى لنكون حتى إنه أوشك فى وقت ما على أن يفقد عقله ؟

لقد رفض أقدر المؤرخين المعاصرين بلا استثناء تقريباً تضديق قصة هذا الغرام . ودليلها فى الواقع واه جداً . ما من أسطورة فى حيات لنكون كلها ، لقيت شغف الجمهور المتزايد على تقبلها . وقد حفرت على شاهد قبر آن الخالى قصيدة شعرية وضعها إدجار لى ماسترز ، وهى أنشودة شجية مهداة إلى الفتاة التى عرفها لنكون والتى ماتت فى ريعان شبابها :

من فؤادى . . . . . نأفهاً غير معروف

ارتجافات ألحان لا تموت

« بلا حقد تجاه أحد . . بالإحسان للجميع »

من فؤادى . . عفو الملايين نحو الملايين

وبوجه أمة . . سنى أمين

يشرق بالعدل . بالصدق المبين

— ٦٣ —

أنا ، آن راتلج ، التي ترقد تحت الثرى  
أحبها أبراهام لنكولن في حياته ما انبرى  
زفت إليه ، لافى اتحاد  
بل فى انفصال .  
أينى للنهاية يا أيتها الجمهورية  
من ثرى صدرى .

من الذى يمكنه الآن أن يعرف ما كان يكمن فى قلبى شاين منذ عدة  
سنوات انقضت فى قرية كان لها أن تتلاشى مثل ضباب الصباح ؟ ربما كانت  
قصة آن راتلج لم تخرج عن كونها إحدى تلك الحكايات العاطفية التى تبدأ  
بكان .. ياما كان .. ولكن .. أسوة بكثير من أساطير الحب المحزنة فقد  
صنعها التاريخ بأسلوبه الخاص .

ومهما كانت الحقائق ، فقد بدأت قرية نيوسالم حيناً من الوقت تفقد  
سحرها فى نظر أبراهام لنكولن . فى إبريل عام ١٨٣٧ حينما كان إيب فى  
الثامنة والعشرين ( وأمامه ثمانية وعشرين عاماً أخرى ليعيشها ) نزح إلى  
سبرينجفيلد لبدأ تدريبه على القانون .

ترك خلفه ذكريات كثيرة عن المتجر الذى « تلاشى فى غمضة عين »  
ورئيس مكتب البريد ، وهى الذكريات التى هبات له فرصة قراءة الجرائد  
المشوقة دائماً ، وشق القضبان ، ودرس القمح ومسح الأراضى .. ترك  
الذكريات عن الأحاديث الطلية الشيقة ، حول وهج المدفأة مع أصدقائه  
العديدين .. عن السكتب التى قرأها .. عن الأصوات التى كان يعطيها له جيرانه  
دائماً كلما رشح نفسه .. وعن فتاة كان قد عرفها وهى التى ترقد الآن تحت

- ٩٤ -

ثرى المراعى .. وبعد عامين آخرين أصبحت نيو سالم قرية خيالية . وكما ردد  
بروسبيرو أحد أبطال روايات شاكسبير :

هائم ممثلونا  
كما أخبرتك .. كلهم أرواح  
ذابوا فى الهواء . هواء رفيع تدرؤه الرياح .  
هاقد التصقنا  
كالأحلام التى بنيناها .....  
وحياتنا القصيرة ذهبت حين نمناها ...



## الفصل التاسع

الأيام الأولى في سبرنجفيلد



« لقد درست القانون ، ونزحت إلى سبرنجفيلد لمارسته »

أ . لسكرولين

أصبح جو شواب . سيد، وهو الشاب الوسيم والتاجر الناجح الكونتياكي  
النشأة، بسرعة أفضل أصدقاء لسكرولين . يتذكر إيب وصوله المتواضع إلى  
سبرنجفيلد، حيث كان على رئيس المستقبل أن يقضى فيها الأربع والعشرين  
سنة القادمة . جاء إليها على حصان معار، وكل ما يملكه في الخرجين اللذين  
ألقاهما على ظهر الحصان وراه . ويستفسر لسكرولين عند دخوله متجر  
سيد « عما يتكلفه فرش السرير المفرد » وحينما يحسبها سيد يجدها تصل  
إلى ١٧ دولاراً . ويقول لسكرولين إنه على الأرجح رخيص بما فيه الكفاية،  
لكنه يضيف ، « رخيص على ما هو عليه ، فلا يوجد معى نقود للدفع .  
ولكن إذا ما أقرضتني حتى عيد الميلاد ونجحت خبرتي هنا كحام ، حينئذ  
سأدفع لك . وإذا فشلت في ذلك ففي الغالب لن أدفع لك مطلقاً . »

اتخذ سيد قراراً سريعاً عندما تأمل الرجل الطويل غير الوسيم والذي  
كان وجهه في مخيلة الكثيرين أكثر كآبة لم يروا مثلها من قبل ، فقال للحمى  
الشاب المكتئب الذي كان متكئاً على طاولة البيع .

« بلما كان مثل هذا الدين سيؤثر بشدة عليك ، فأعتقد أتى أستطيع أن  
أقترح خطة تتمكن بها من تحقيق هدفك دون تحمل أى دين . فلدى غرفة

واسعة جداً وسرير كبير يتسع لشخصين... وإني أرحب بك تماماً إذا  
شاركني إياها إذا أردت .

وتساءل لنكون « أين هي هذه الغرفة ؟ ، فأجابه سيد « في الدور  
العلوى » . وأشار إلى درج يوصل إلى الطابق العلوى ، فحمل لنكون  
الخارجين صاعداً الدرج كل سلمتين في خطوة واحدة ، وعندما نزل مرة  
أخرى كان يتسسم في ارتياح وقال « حسناً ياسيد . لقد استرحت » .

وعلى الرغم من أن لنكون ضمن شكواه من وحدته أول خطاب  
أرسله حال وصوله ، فإنه كان في حالات كثيرة رجلاً محظوظاً . فلم يهيه كرم  
سيد له البيت فحسب ، لكنه هياً له أيضاً نادياً وداراً للندوات . وهناك في  
حجرة واسعة خلف المتجر مجهزة بمذفاة كان يجتمع فيها باستمرار بشباب  
المدينة اللامع للمناقشة في الأدب ومناقشة السياسة . وكان سيد كما يبدو  
قارئاً ممتازاً مثل لنكون بل كان يعتبر أكثر صقلاً ، وكان هو كاتبه الذكى  
اللبق بيلي (هيرندون) ، من المنتظمين في حضور تلك المجادلات ، وفي  
بعض الأحيان كان الشاب السياسى الناجح ستيفن دجلاس يجتمع معهم ،  
وبقدر ما كان قصيراً جداً ومن الديموقراطيين ، كان لنكون طويلاً ومن  
« الهويج » وميلاً للمصالحة . وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال وغيرهم يتفكهون  
ويتندرون بالروايات المسلية ويروون الشعر إلى ساعات متأخرة من الليل .  
وفي أوقات أخرى كان لنكون ودجلاس يتناظران في سلسلة من المناقشات  
السياسية . . وكنا فعلاً اثنين من المناظرين الأفاضل .

وفي نواح أخرى أيضاً ، كان لنكون محظوظاً ، ففي الوقت الذى اتخذ  
جون ت. ستوارت - الذى شجعه على دراسة القانون - من لنكون شريكاً  
له ، وعلى الرغم من أن دفاتر ستوارت ولنكون الحسائية التى أمسكها



تدل على أن الأتعاب الرسمية التي كانت تحصلها هذه الشركة عن كل استشارة خلال عامها الأول كانت خمسة دولارات فقط ، فقد كانت الشركة محترمة تسير على وفاق .

وفضلاً عن ذلك كان لنسكولن محبوباً في سبرنجفيلد ، لأنه خطط بذكاء التديرات السياسية التي نقلت عاصمة ولاية إلينوى من فانداليا إلى موقعها الجديد في سبرنجفيلد .

ومن واقع تعداد الولاية الذي أجرى قبل ذلك بعامين ، يمكننا أن نتصور مدى الحيوية التي كانت عليها هذه المدينة ذات الألف وخمسمائة مواطن في وقت وصول نسكولن . فقد كان هناك كثير من الحانات مثلما كانت هناك كنائس بلغ عدد كل منها ستاً . ويستطيع القاطن في هذا المجتمع النامي أن يشتري السلع الجافة من تسعة عشر مخزناً متفرقة وكان هناك أربعة فنادق وأربعة مخازن للأدوية وأربعة مقاه . كان هناك جريدتان تتنافسان في تلك البلدة وهما اللتان أصبحتا في آخر الأمر تقريباً أبواقاً شخصية للمتنافسين السياسيين أبراهام لنكولن وستيفن دجلاس . كان سيمون فرانسيس المعاضد والمخلص للنكولن محرر ( سانجامو جورنال ) ومن ناحية أخرى كان دجلاس يعتمد على الصداقة والتأييد في ( إلينوى ريبابليكان ) وهي التي أصبحت فيما بعد تعرف ( إلينوى ستيت ريجستر ) وكان محررها جورج ر . ويبر .

وكانت أغلب المتاجر والمكاتب تواجه الميدان المركزي أو تنتشر على امتداد شوارع المدينة . وعلى البعد تنتشر سلسلة من المساكن ، خليط من أكواخ خشبية ذات بنية ثابت من خشب أو طوب .

ولكن في سائر هذه القرية السريعة النمو كانت الشوارع غير ممهدة .

دوامات من الأتربة في الجو الجاف ، وحفرات عميقة من طين إلينوى الأسود حينما تمطر السماء . وتتفرغ الخنازير على غير هدى حتى في الميدان ، وأحياناً كان عبور الطريق يعتبر تمريناً رياضياً وكانت الحياة في العاصمة الجديدة للولاية خشنة صعبة في كثير من النواحي .

وعلى نقىض ذلك، كان لسكل من المدينة الحديثة والحامى الشاب اتجاهات فكرية . وكانت سيرنجفيلد تفخر بأن بها مكتبة وأكاديمية وعدة مدارس خاصة . وكان بها أيضاً جمعية مسرحية وجماعة النهو عن المنكر إلى جانب قاعة محاضرات للشباب ، تلك التى شهدت سلسلة من المحاضرات التى ألقاها بها مشاهير الشخصيات أمثال دانيال وبستر .

وقد لا تتمكن قليل من القرى الأمريكية المعاصرة ذات الألف والخمسمائة نسمة من أن تنشر حالة فكرية مماثلة عن طريق الكتب، كما كانت عليه الحال في سيرنجفيلد وما يتأخما . وثمة فئة قليلة من المواطنين في ذلك المجتمع الأول كانت أكثر اهتماماً بالنواحي الثقافية من أراهم لسكون .

وامتازت سيرنجفيلد بكرامها للضيف بحرارة . وكان نينيان و . إدواردز وزوجته «إليزابيث تود إدواردز» من ضمن القادة الاجتماعيين لهيئة نموذجية واسعة الانتشار من الكنتا كين . . . . وسرعان ما انضم لسكون إلى هذه الهيئة . وبصفته شريكاً لجون ستيوارت في مكتبه القانونى، وزعيماً للأحرار في مجلس الولاية ، كان عوناً للجميع رغم ملابسه المزرية ، يتكلم بلسكنة خاصة فيستحوذ على انتباه المستمعين من الذكور الهازين الذين لا هم لهم إلا دعوة الأنسات لمخاصرتهم في رقصة .

وتتناقل الروايات المأثورة ما حدث أثناء حفل موسيقى راقص بمناسبة انعقاد أولى دورات المجلس التشريعى في سيرنجفيلد ، عندما قابل لسكون

فتاة صغيرة ممتلئة ، زرقاء العينين لبقة ذات ثقافة عالية ، رقيقة المزاج تدعى ماري تود ، الأخت الصغرى لمسز إدواردز . وقد قيل إن الحجر كانت مزدانة بالزهور تحت ضوء الشموع ولم تكن هناك فتاة أخرى أكثر تألقاً من الصغيرة ماري تود في الحفل ، وهى فى ثوب الرقص العارى الصدر .

ولم يتمكن أبراهام لنكولن الطويل القامة فى حلتة السوداء غير المتناسقة من أن يركز فكره على حكاياته المرحية أو أن يركز بصره على الفتاة الفاتنة التى كانت ترتص تارة مع جيمس شيلدز وأخرى مع بعض صغار المعجبين . وأخيراً اقترب لنكولن من الأنسة تود المتألقة بعد أن استجمع شجاعته ، وأسر إليها طالباً الرقص معها « بأردأ أسلوب » . وتقول ماري تود إنها « كانت كذلك بالتأكيد » .

وهكذا بدأت واحدة من أهم العلاقات الغرامية العاصفة التى أدت إلى واحدة من أهم الزيجات المحيرة فى التاريخ الأمريكى .

ولم يكن هناك شخصان أكثر تناقضاً من أبراهام وماري . فقد أتبع لنكولن أن يتلقى فى أقل من عام دراساته الأولية ، بينما كانت ماري خريجة اثنتين من الأكاديميات الخاصة حيث درست اللغة الفرنسية والدرامة والرقص والموسيقى والأدب والمساعدات الاجتماعية . لم يكن لنكولن من أصل متواضع فحسب ، وإنما كان يشعر بضعة نسبه إلى أسرة هانكس . ومن ناحية أخرى كانت عائلة تود واحدة من أهم عائلات كنتكى . وبينما كان لنكولن عادياً فى مظهره ، متواضعاً متفتح الذهن متأنياً ومتساحاً ، كانت ماري متأنقة متزينة تثير الضجة حوله ، مسرقة ومغرورة ، وفى أغلب الأحيان غير متساهلة تنساق فى أغلب الأحيان فى ثورات الغضب . وبينما كان طموح



لنسكولن متواضعاً ، كانت ماري من أكثر السيدات اللواتي عرقتهن سهرنجفيلد طموحاً .

وفي الوقت الذي أحيطت فيه ماري بإعجاب لنسكولن ودجلاس شيلدرز ، كانت تسأل أحياناً عن الرجل الذي تأمل الزواج به فكانت تجيب أكثر من مرة بأنها ترغب في الزواج من الرجل الذي يبدو أن توليه الرئاسة أكثر احتمالاً عن غيره . ووجدت في لنسكولن ودجلاس خير متنازعين يتنافسان على نيل هذا الشرف البعيد المنال . ولكن ربما كانت ماري بطموحها الجارف كفيلة بأن تخلق من أى منهما رئيساً .

ومع ذلك فإن هذه الصورة غير اللطيفة لماري تود لاتعطينا فكرة كاملة عنها . لجاذبيتها وحيويتها وذكاؤها كانت صفات كافية للحكم بمئاليته التي أجمع عليها كثير من المؤرخين المحدثين والروائيين . ومن المؤكد أنها لم تقدر لنسكولن إلى أعماق سوداويته المزمنة ، لكنها جعلته مسحوراً بها . ولقد تناقش الاثنان في الأدب والسياسة وهما الشيطان اللذان يشتركان معاً في الإهتمام بهما . وتبعاً لرواية شقيقة ماري بعد أن زارها لنسكولن ، « كانت ماري هي البادئة دائماً بالمناقشة . وكان لنسكولن يجلس بجانبها يستمع إليها وقلما كان يقول كلمة واحدة ، ولكنه كان يظل محلقاً فيها كأن قوة خفية لاتقاوم شدته إليها » .

وخلال العام الأول الذي تبع لقاءهما بدا أن غرامهما يسير حثيثاً . ورغم معارضة عائلة ( إدوارد ) في أن لنسكولن زوج غير مناسب ، فقد أعلنت خطوبتهما في سنة ١٨٤٠ . أما ما حدث بعد هذا مباشرة فما زال محل جدال حتى بين أوسع كتاب السيرة خبرة ومعركة . والكثير من هذه السيرة مازال معتمداً كدخان الهندود الأزرق على طول شاطئ سانجامون . ومع قدوم الشتاء

تحركت الآلام في قلب لنكولن المتعب وفصم خطوبته في أول يناير عام ١٨٤١، وما زالت أسبابه الخاصة لفصم تلك الخطوبة غير واضحة.

مرت سنتان من الشقاء لكليهما، وخاصة لنكولن الذي سيطر عليه الأسى فجعله لا يغادر غرفته لأيام. ووجد لنكولن نفسه مهموماً غير واثق من نفسه، وغير قادر على اتخاذ قراراته أو على التصرف بحكمة بعد علاقة غرامية قصيرة مع سيدة صغيرة تدعى (مارى أوز) لم تكن على جانب كبير من الجاذبية.

ومن المعتقد أن رحلة لنكولن إلى كنتشكي لزيارة جوشوا سييد ساعدت على استعادته حالته المعنوية وسعادته. أما عن سييد الذى عاد إلى ولايته الأصلية فقد أعلن خطوبته إلى فتاة جميلة تدعى (فانى هيننج)، لكنه كان نافرأ من المضى في الزواج كنفور لنكولن نفسه. ويبدو أن لنكولن حينما كان يقنع سييد بأن النفور من الزواج يعتبر منافياً للمنطق، اقتنع هو نفسه بهذا. وعندما كتب سييد إليه يصف سعادته الزوجية، أمد هذا الخطاب لنكولن « بسعادة كبيرة تفوق كل ما تمتعت به من ذلك اليوم البغيض من يناير عام ١٨٤١ ».

ومن المحتمل أن زوجة سيمون فرانسيس، رئيس تحرير جريدة (سانجامو جورنال) هى التى جمعت لنكولن ومارى تود مرة أخرى. فقد جعلتهما يستعملان منزلها فى مقابلاتهما السرية. وكان مما لاشك فيه أن هذان المتآمران تعاونوا بسرور فى كتابة خطابات (المدينة الضائعة) التى كادت أن تكلف لنكولن حياته يوماً من الأيام.

اعتاد أبراهام قبل بلوغه العشرين، أن يكتب تقريراً موجعاً للأمور تثير روح الفكاهة. لكنه استغل هذه الموهبة باستعمالها فى المعاداة السياسية.



فعندما أصبحت لديه الحرية في أن يكتب في جريدة (سانجامو جورنال) وأن تفرد لكتابات أعمدة الجريدة، وجد إغراء لا يقاوم نحو الكتابة بسخرية، والهجوم على بعض أعدائه، موقفاً على مقالاته بأسماء مستعارة كان من بينها (شبح سامبسون).

وتخيل لنكون ومارى - ومن المحتمل أنهما وجدا مساعدة من أقرب صديقات مارى (جوليا جلين) - تخيلاً شخصية كاتبة خطابات جديدة، إلى جريدة (سانجامو جورنال) وصفت نفسها بأنها مزارعة من (المدينة الضائعة) ووقعت كتاباتها باسم (العمة بيكا). ولسانها كان حلواً كالكمكة، لا ذعاً كالملح. ولم يكن ضحيتها غير خصم لنكون في السياسة (ومن قبل في الحب) الأيرلندي المولد جيمس شيلدز، مراجع حسابات الولاية.

ولقد ساعد لنكون زملاؤه الأحرار من حزب «الهويج» على جر الديون الكثيرة على الولاية، واتخذ موقفاً واضحاً في لوم شيلدز وحزبه على بعض التصرفات المالية للولاية، والتي كانت أخطاء لنكون سبباً فيها أكثر مما سببها أخطاء شيلدز.

وتطورت المؤامرة ببطء إلى أمور غير مرغوب فيها، ووجد لنكون نفسه يواجه تحدياً سافراً بالإعتذار أو القتال، بعد أن نشر خطاباً بالسباب كتبته مارى تود وجوليا جلين في غيبة لنكون ووقعته أيضاً باسم (العمة بيكا). ولم يكن هناك مفر من الدعوة إلى هذا التحدى. وقد طلبت العمة بيكا إزاء إصرار شيلدز على القتال أن يكون متكافئاً. فإما أن يرتدى شيلدز جولة نسائية وإما أن ترتدى هي سروالاً !!

وقد نفذ صبر شيلدز وأصر على أن يكشف المحرر عن الكاتب الحقيقي.

لهذا الهجوم . ولكن لنكون ، وهو المتحمل لمسئولية تلك الخطابات ، حاول أن يعالج المأزق الذى تردى فيه بدون اعتذار علنى . وعندما فشل فى هذا قبل تحدى شيلدز مضطراً . واختاراً كبر سيوف الفرسان كسلاح للقتال . وكان شيلدز واحداً من معلى لعبة الشيش . ولهذا كان اختيار لنكون للأسلحة يعتبر انتحاراً ، لولا التعاهد الهزلى الذى تم بينهما والذى قبل لنكون بمقتضاه الاتفاق على القتال ، وهو الذى بمقتضاه يوضع لوح من الخشب على حافته فوق الأرض . وعلى المتصارعين ألا يعبرا لوح الخشب ولا التقهقر عنه بعد خط مرسوم « كل المسافة بينه وبين لوح الخشب لا تتعدى طول السيف بالإضافة إلى ثلاثة أقدام » . ورغم طول خبرة شيلدز بفن المبارزة فإنه ما كان ليستطيع الوصول إلى لنكون ذى الذراعين الطويلين . وفى نفس الوقت فإن لنكون ما كان ليستطيع التقهقر إلى ما بعد الخط دون أن يسيء إلى سمعته وذلك ليتجنب ارتكاب الجريمة التى تنتظره وهى غير مرغوب فيها بالمرة . ومرت الثوانى أكثر عنفاً من المبادئ التى من أجلها أثير القتال . واستمر هيب الغضب يحدد الهواء الذى يزيده اشتعالاً . لكنهما عندما تقابلا فى الموعد المحدد على شاطئ ميسورى من نهر الميسيسى أمام ألتون فى ولاية إلينوى ، سويت كل الخلافات بينهما دون قتال .

وعلى كل حال ، كان هناك على الأقل شيان يستحقان الاهتمام نتجا عن هذا الصراع . فلم يعد لنكون يهاجم خصمه إطلاقاً بخطابات مجحولة الإسم من ناحية ، ومن ناحية أخرى لمست ماري تود بحق شهامة لنكون فى الدفاع عنها . وسرعان ما وافقت على زواجهما السريع .

ولم يشهد الاحتفال بالزواج إلا أقرب الأصدقاء عندما تعاهد الاثنان

— ١٠٨ —

في ٤ نوفمبر ١٨٤٢ في منزل إليزابيث ونينيان إدواردز على : « لن نفترق حتى  
الممات . على الحلو والمر . بالغنى وفى الفقر . فى المرض والصحة »  
وهكذا اشترك الاثنان فى الكفاح الشاق الطويل ، نحو تحقيق طموح مارى  
الكبير : دخول البيت الأبيض مع أبراهام رئيساً للجمهورية ، ومارى  
كسيدة البلاد الأولى .

## الفصل العشرون

عضو الكونجرس ومحام





« في عام ١٨٤٦ انتخبت عضوا في مجلس النواب بالكونغرس »

أ. لنكولن

كان لنكولن في حياته العملية شريكاً ثلاثة ، الأول جون ت. ستوارت وهو الذي ذكر من قبل ، ثم ستيفن ت. لوجان ، وأخيراً وليام ه. هيرندون . وعندما حل « ستوارت ولنكولن شركتهما معاً عام ١٨٤١ ، تعاون لنكولن مع لوجان الذي كان واحداً من أذكى العقول القانونية في إلينوى . كان ربيعاً قليل الحجم ذا شعر أحمر غزير ، لا يهتم بمظهره تماماً كحال لنكولن . لكنه كان يجهز قضاياها بعناية أكثر . ولقد علم لوجان شريكه أن يعطى كتب القانون الخاصة به عناية أكبر وأن يتقن وينظم قضاياها . وقد أصبح لنكولن بهذا وكيلاً قانونياً أقدر عن ذى قبل على الرغم من أن لوجان وصفه باستخفاف بأنه « محام جيد وظريف » ومعلوماته العامة في القانون « لم تكن أبداً هائلة » .

قرر لوجان عام ١٨٤٤ أنه يفضل ابنه كشریک له . وعندما أصبح لنكولن بلا شريك ، دهش « بيلي » هيرندون البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً عندما عرض عليه لنكولن مشاركته . ويقول هيرندون « كنت مازلت قليل الخبرة . وكنت أعرف مدى حاجتي إلى الحذر والخبرة ، لكن لنكولن عندما استمع إلى ماقولته أجاب بطريقة الكريمة الجادة « بيلي ، أستطيع أن أثق بك إذا كنت أنت نفسك تثق بي » . ولقد أحسست ساعتها بالارتياح ووافقت على هذا العرض الكريم .

ولقد كان عرض لنكولن كريماً بحق . ولم يكن عرضه هذا يحمل في جنباته إهمالاً أو عدم دقة في حسابه كما يبدو . أما عن هيرندون ، فقد كان له نشاط سياسي مع جماعة الفتوة الجائعة ، الذين كانوا عضواً هاماً لأية انتخابات في المدينة . وكان تعليمه أرقى من تعليم لنكولن نفسه ، وكان حقل معلوماته العامة غزيراً خاصة في الفلسفة . ومن المحتمل أن لنكولن فضل أن يدخل بعض التعديل في حياته فاختر لنفسه مركز الرئاسة في هذه الشركة واختار بيلي هيرندون ليليه في المركز . وتحول احترام الشاب نحو « مستر لنكولن » تدريجياً ليصبح إعجاباً بطولياً به ، لكنه اختلط لاشعورياً ، وإلى حد ما ، بالغيرة .

وبعكس لنكولن في ملبسه المتثنى غير الملائم لجسده ، كان هيرندون متأنقاً يلبس حذاء رشيقاً من الجلد البراق وقفازاً من جلد الماعز الأزرق . وكان كلاهما يضع قبعة طويلة من الحرير ذات حافة عريضة على رأسه . لكن قبعة هيرندون كانت لامعة خالية من البقع ، بينما كانت قبعة لنكولن محشوة بالأوراق القانونية .

وحق وفاة لنكولن ، استمر هذان الشريكان في علمهما معاً دون عقد قانوني يربطهما . يعملان بجد رغم تباين أخلاقهما . وكانا يتقاسمان أرباحهما مناصفة . ورغم أن العلاقة بين هيرندون وماري زوجة لنكولن كانت أي شيء إلا الصداقة ، فإن العداء الكامن بينهما لم يصل إطلاقاً إلى حد التأثير على العلاقة بين « بيلي » و « مستر لنكولن » ، كما اعتاد أن ينادى كل منهما الآخر .

ولقد كان لنكولن سعيد الحظ في العمل مع شريكه الوديع في المحاماة ، لأن حياته في المنزل لم تكن دائماً مفرحة . لقد أحب كل من لنكولن



ومارى الآخر حبا أصيلا كما تثبت ذلك بعض خطابات وعدة برقيات تبادلها .  
فلقد تقاسما أحزانها وانتصاراتهما معاً وتمتعاً بنجاح حملتهما السياسية بعد  
قتال عنيف وكأنهما فريق متكامل الأعداد . كان تفكير كل منهما ذا قيمة  
بالنسبة للآخر .

لكن الصداق الذى كان يلزم مارى ، وسورة غضبها الحادة ولسانها  
اللاذع حالت دون هدوء البيت . كانت لا ترحم فى نقدها طريقة زوجها  
البسيطة فى الحياة وأخلاقه الصريحة وروحه المرحه ، وعاداته الشاذة خاصة فى  
القراءة أثناء رقاذه على الأرض وهو رافع ساقيه إلى فوق مستوى رأسه .  
وعلى كل حال كانت لمارى نفسها عادات شاذة هى الأخرى . فقد كانت  
الرياح العاصفة ترعها إلى حد أن لتكولن كان يسرع إلى منزله بمجرد أن  
يلحظ أى سحابة سوداء فى السماء ليعمل على راحة زوجته المرتبكة .

عاش الزوجان فى بداية زواجهما فى فندق سبرنجفيلد فى غرفة وصالة  
بأربعة دولارات فى الأسبوع . وولد طفلهما الأول روبرت تود لنتكولن  
فى ذلك المكان فى أغسطس ١٨٤٣ ، وقد اشتريا فى يناير التالى كوخاً بألف  
 وخمسمائة دولار ، أحيل إلى مسكن مريح بعد إجراء بضعة إصلاحات وتوسيعات  
فيه ، ضمهما معاً حتى انتقلا سوياً إلى البيت الأبيض فى واشنطن عام ١٨٦١ .  
وكان بينهما فى سبرنجفيلد هو الذى شهد مولد ثلاثة أبناء آخرين . إدوارد  
باركر وكانوا يدعونه ( إيدى ) الذى ولد عام ١٨٤٦ ، وويليام والاس ( ويلي )  
الذى جاء عام ١٨٥٠ ، وتوماس الذى عرف ( تاد ) ، وهو الطفل الأخير  
الذى جاء عام ١٨٥٣ ، ومن الأربعة لم يعيش ليبلغ سن الرجولة سوى روبرت  
تود لنتكولن .

قرب حب الأطفال والخوف على صحتهم والسرير بجانب أسرتهن فى

مرضهم، بين قلبي أبراهام ومارى، وجعلهما هذا الروع الشديد بالأطفال يجدان صعوبة كبرى فى تعليم صغارهما النظام . وقد وصف بيلي هيرندون الأولاد بأنهم كانوا مدللين، وهو الذى لم يكن عادلاً فى حكمه أبدأ على شيء يحبه لنكولن . كان الأطفال يشيرون ناثرة بيلي عندما كان لنكولن يصطحبهم معه صباح كل أحد للمكتب . فبينما يكون والدم منهمكا فى القراءة بصوت عال ليسمع نفسه، لاهياً عن الأذى الذى كان يسببه هؤلاء الأطفال ، كان الخبثاء الصغار « يقلبون الحجرة رأساً على عقب ، ينزعون أغلفة الكتب ويقذفون بالأدراج ويقلبون الصناديق ، يدقون أسنان الأقلام وهى من الذهب الخالص فى حائط المدفأة ، ويبعثون الخطابات وسط الحجرة ثم يرقصون فوقها . . » كان إحساس هيرندون دائماً تجاه الأولاد هو أنهم يحتاجون إلى صفعات قوية . لكن لنكولن الذى أحب دائماً أن يلاطفهم ويشاركهم ألعابهم كان يتفق مع مارى فى أن تقويم أخلاقهم سيتم تلقائياً مع مرور الأيام . ومن المحتمل أن ما لقيه لنكولن أيام « ضرب العصا » من والده الدائم الغضب ، وشبابه المرير القاسى ، جعله ليناً مع أولاده متساهلاً . .

وكما تثبت القصص الكثيرة عنه كان لنكولن مغرماً ومحباً للأطفال . كان طوله ست أقدام وأربع بوصات . كما أضافت قبعته الحريرية المتجهة ناحية السماء إلى طوله بضع بوصات . وكان الأطفال المرحون يمدون خيطاً رفيعاً ربطوه فى الأشجار على ارتفاع سبع أقدام فوق الطريق ليسمح بمرور أى شخص دون أن يلمسه ماعدا لنكولن الذى كانت ترتطم قبعته به ، فتقع أوراقه على الأرض فيخرج الأطفال المختبئون فى الأحرار يضحكون ويصيحون وهم الذين كانوا يجلسون أنفاسهم منذ لحظات ؛ ثم يقفزون على كتفيه . وكان أبراهام كالصغار تماماً يسر لنجاح مقلبيهم غير الضار ، ويشاركهم تمتعهم بهذا اللعب والهدر .

كرس لنكون حياته لممارسة القانون ، لكن السياسة كانت شغله الشاغل .. فبعد أربعة دورات في مجلس الولاية التشريعي تم ترشيحه بواسطة زملائه الأحرار لعضوية الكونجرس . وبعد رفضه مرتين لهذا الشرف ، عملت الترقيات مع زعماء المقاطعة الآخرين من رجال حزبه ليحضره عام ١٨٤٦ ، وفي ذلك العام تم ترشيحه من حزب الهويج وفاز بجدارة على منافسه الديمقراطي . وبدون إحساس شديد بالسعادة التي كان هو نفسه يتوقعها استعد لأخذ مقعده في المجلس النيابي في ديسمبر ١٨٤٧ .

وقام عضو الكونجرس الجديد عن إلينوى ، ومعه زوجته الجميلة المترددة الصعبة المراس ، برحلتها الطويلة إلى واشنطن بالقارب البخارى ثم بالقطار . وكانت العاصمة في تلك الأيام تعج بالمتجولين وتعدادها نحو أربعين ألف شخص ، منهم ثلاثون ألف أبيض ونحو عشرة آلاف زنجى ، منهم نحو ألفين من العبيد . كانت المدينة من أكبر أسواق الرقيق في البلاد تحت سمع الكابتنول وبصره .

كان مقر الحكومة في عام ١٨٤٧ ذا قبة خشبية مؤقتة ولم يكن قد استكمل جناحيه الحاليين . وفي خيمة البيت الأبيض كانت فرقة موسيقى البحرية تعزف بعض المقطوعات لعامة الشعب عصر كل أربعاء وأحد . وبين مبنى المجلس التشريعي والنهر كانت تكمن الممرات المليئة بالملايا . وكان طريق بنسلفانيا مغطى بالحصى الرفيع وهو الذى كانت تسير عليه عربات الأغنياء محدثة أصواتاً مرتفعة وجلبة شديدة . ومن ناحية أخرى ، كانت الشوارع غير مهدة ، حالها كحال شوارع سبرنجفيلد ، مليئة بالحفر والأحمال التي تسببها الأمطار ، ومقدار تلك الأحمال كان يتوقف على حالة الجو . كما أن الخنازير والبط والأوز كانت تتغذى بأكوام الفضلات الملقاة في الأزقة . كانت الأكواخ الحقيبة والقصور الشاحخة تقف جنباً لجنب دون أن تكون هناك حدود مرسومة .

ولذا لم يكن إحساس لنكولن بالفرح كبيراً بفوزه في الانتخابات ، فقد كانت خيبة أمل ماري في مدينة واشنطن عظيمة . وعلى الرغم من أصلها العريق في كنتكي مسقط رأسها ، كياحدى سليلات عائلة تود ، فقد كان مركزها في حياة العاصمة الاجتماعية تافهاً . فالدعوات التي جاءها لحضور مكتبة الحفلات كانت قليلة ومتباعدة إلى حد ما . ونزلت عائلة لنكولن في نزل ( بنسيون ) كان يشغل المنطقة التي أقيمت عليها الكونجرس فيما بعد ، والتي مازالت هناك حتى وقتنا هذا . وسرعان ما أصبح أبراهام هو الرفيق المفضل للنزل بالنسبة لرؤساء الخدم والنزلاء على حد سواء ، بسبب قصصه التي كانوا يتمتعون بسماعها منه بالإضافة إلى أخلاقه الحلوة . بينما لازمت ماري غرفها ماعداً أوقات تقديم الطعام . واقتصرت صداقتها على عدد بسيط من الصديقات . وبعد حوالى الثلاثة أشهر من هذه الحياة الريبة ، عادت ماري إلى حياة الانطلاق في موطنها كنتاكي ، لتنتظر زوجها بعد انتهاء جلسات المجلس .

وقد أمدنا هذا الانفصال بالدليل المكتوب من لنكولن وماري على حب كل منهم للآخر . ولدينا أربعة خطابات من لنكولن . وخطاب واحد من ماري ، تبين لنا تريناً كيف أنها على الرغم من عدم اتفاقهما في كثير من الأحيان ، كان يتفقان معاً في الشعور بالحنين كل منهما إلى الآخر ، بل أكثر من هذا فقد تشاركا معاً في عواطفهما نحو أطفالهما .

إن خطابات لنكولن إلى زوجته لا يمكن أن تسمى خطابات غرامية ملتهبة . فلقد كتب إلى زوجته يقول إنه سئم « أن أبقى في هذه الغرفة القديمة وحدي » . ولقد حاول أن يجد جوارب لتلائم « قدمي الصغير إيدي العزيز » . كما تمنى لزوجته أن تكون قد تخلصت من الصداع . وكتب لها عن خوفه من

أن تكون « بصحة جيدة وازددت سمته وصغر سنك كأنك تنتظرين الزواج مرة أخرى ». وطلب منها أن تزن نفسها وتخرجه بوزنها ، كما تحدث عن أولاده فقال « لاتجعلى الأحباء الصغار ينسون بابا ، ووقع خطاباتك » المحب الأكبر ، وهو الشيء الذى إن لم يكن شعراً عاطفياً ، فعلى الأقل يعتبر رسالة رقيقة وعائلية من رجل إلى زوجته .

وعندما اتخذ لنكولن مقعده فى الصفوف الأخيرة كعضو جديد بالمجلس فى دورته الثالثة عشر ، كان واحداً من أقل الأعضاء معرفة بالجهاز التشريعى . وفى القاعة أيضاً جلس رجال عديدون من الذين صنعوا التاريخ أو كانوا على وشك صنعه .

كان من أبرزهم الرئيس السابق للولايات المتحدة جون كوينسى أدامز ، عضو الأحرار البالغ من العمر أربعين عاماً ، نائرومغرم بوطنه يفوق لنكولن نفسه فى نقده المفتوح للرق . وكان لنكولن إذا أدار رأسه ويساراً أو يميناً استطاع أن يلمح ألكسندر ستيفنس من جورجيا الذى أصبح نائباً لرئيس الولايات المتحدة ، وأندروجونسون من ولاية تنسى الذى أصبح فيما بعد نائباً لرئيس الجمهورية تحت رئاسة لنكولن ، ودافيد ويلهوت من بنسلفانيا وهو واحد من مؤلفى شرط ويلهوت الإضافى ضد الرق ، وكان من أكثر أعضاء الكونجوس فى المجادلة . ولم يكن أحد من الجالسين فى تلك القاعة يتخيل أبداً أن هذا العضو الجديد من إلينوى الخضراء ، وهو الذى لم يكن يعرف أبداً ما الذى يفعله يديه وقدميه الكبيريتين ، سيصبح يوماً ما زعيماً لهم .

ولقد كانت هناك عدة مسائل محلاً للنزاع فى الدورة الثالثة عشرة





للكونجرس . لكن أشد القضايا إثارة كانت الحرب المكسيكية ، وازدياد النزاع الطائفي حول الرق ، بل تداخلت المشكلتان معاً في بعض الأحيان .

حصل لنكولن على مقعده عام ١٩٤٧ مع انتهاء الحرب المكسيكية تقريباً ولكن على الرغم من الانتصارات التي تمتع بها كان الإنهاك الذي خلفته الحرب مازال باقياً . وأكثر من هذا فإن الرئيس بولك ، كان ديموقراطياً وجعله هذا لا يتمتع بثقة « الهويج » .

انشغل لنكولن بعضوية لجنتين على الأقل من لجان الكونجرس . وقد كان لفت النظر الوحيد الذي تلقاه حتى من جرائد إلينوى نفسها يتعلق بتبنيه « قرارات المكان » Spot Resolutions الذي كان يهدف بها إلى إرغام الرئيس بولك على التسليم بأن ( المكان ) الذي أريقت عليه أول نقطة من دماء الحرب كان فعلاً أرضاً مكسيكية . ويصم هذا الأمريكيين بأنهم معتدون في نزاع غير عادل ومازال المؤرخون حتى الآن يبحثون عن إجابة هذا السؤال الهام . لكن الذي يجب الإشارة إليه ، أنه لا لنكولن ولا جريدة ( سانجامو جورنال ) أظهروا ارتياحهم في تقبل العجرفة المكسيكية عند بدء القتال . وبينما كان لنكولن يكره الحرب في كل الأوقات طوال سني عمره ، فإن مناوراته في تلك الأزمئة ساعدت حزب الهويج في تقوية استراتيجيته التي ترمي إلى تحطيم شعبية الرئيس بولك والديموقراطيين ، ليتسنى انتخاب رئيس جمهورية من الهويج في انتخابات الرئاسة المقبلة .

ولكن الأثر السريع الذي تركته ( قرارات المكان ) هي أن أصبح أبراهام لنكولن واحداً من أقل أعضاء الكونجرس شعبية في المجلس وحتى في ولايته ، بل في مقاطعته كلها . وكثير من أصدقاء أبراهام وجيرانه قتلوا

أوجرحوا في الحرب . وقد توسل يلى هيرندون في كل رسائله إلى شريكه لنكولن أن يخفض من نغمة هجومه ، لكن لنكولن أصر على معاداته للحرب ومعاداته لبولك . ومضى في الدعاية ضد الديموقراطيين .

ومرة أخرى ، لم يكرس نفسه ( للسياسة العملية ) وحدها ، فقد أعد مشروع قانون يهدف إلى تحرير العبيد في مقاطعة كولومبيا مقدماً دليلاً مبكراً على وطنيته التي كانت تهدف إلى التخلص من تلك الرذيلة بطريقة محافظة وبوسائل غير عنيفة . ولكن مجهوداته لم تسفر عن شيء .

عاد لنكولن إلى سبرنجفيلد مرة أخرى بعد حضور الجلسة الثانية للمجلس . وأقام مع ماري وأولاده في بيتها المتواضع مؤملاً أن يحصل على وظيفة عامة ذات مركز قوى . وعندما عرضت عليه سكرتارية أراضى أوريجون ، وهو مركز لا يغير على الإطلاق دفعته ماري ، وهى التي لم تكن لديها الرغبة في المعيشة بالغرب الموحش البعيد ، على اتخاذ قراره بعدم قبول هذا المركز ، وشعر لنكولن وقتها بأن حظه قد تحطم إلى الأبد في ميدان السياسة .

وعاد من جديد وهو حزين إلى ممارسة القانون وليقضى عدة سنوات كلها تفكير وهذوء .

وفرت محكمه الدائرة الثامنة القضائية في المقاطعة التي تشرف على مساحة قدرها ١٢ ألف ميل مربع من برارى إلينوى ، حياة متنقلة للنكولن ، وأخذته وظيفته من بلد إلى أخرى ، وأبعدته عن بيته بالأسابيع بل حتى عدة شهور في وقت واحد . وقابل في طوافه العواصف الثلجية والسيول المنهمة ، كما قابل الجو المنعش والسحاب الصافية .

وكان يمتطى فى رحلاته حصاناً ، وغالباً ما سافر فى عربته صغيرة دائماً الصرير أثناء سيرها وكان يضع شالاً حول كتفيه الرفيعتين ، ودائماً وأبدأ . كان فى يده كتاب . وفى عام ١٨٥٠ كان يسافر أحياناً بالسكة الحديدية ، وظل يقرأ حتى تمكن من الكتب الستة الأولى ليوكيدس فى الهندسة معتقداً بحق أن الهندسة تساعد على تركيز أى عقل من العقول . كما أنه قرأ وفظم الشعر .

وفى المدن والقرى المختلفة التى كانت تنعقد فيها المحكمة ، تقابل مع القضاة وبعض الشخصيات الأخرى ، يغزلون الخيط ويتناقشون فى السياسة ويلقون النكات حتى منتصف الليل . كان لنكون حياة الجماعة وتخلص من سوداويته ليقص القصص ويروى النكات .

لم يكن لنكون حتى ذلك الوقت قد بلغ الذروة المالية التى كانت ستأتيه فيما بعد ، عندما تقاضى أكبر أتعاب استحقاقها عن جدارة وهى خمسة آلاف دولار من شركة السكك الحديدية المركزية يالينوى . ولكن لعله شعر بارتياح أكثر عندما ترفع عن أرملة كانت تطالب بحقوقها فى التعويض عن فقد زوجها ، وكان أحد المحتالين قد استولى بدون وجه حق على هذا التعويض . وقد رفض لنكون وقتها أن ينال أجراً على هذه المرافعة .

وكانت قضية داف أرمسترونج المشهورة ، قضية أخرى رفض فيها أن يتقاضى بنسأ واحداً ، وكان أرمسترونج الصغير ، ابن جاك وحنأ أرمسترونج صديق لنكون منذ أيام نيو سالم ، متهماً بالقتل . ولقد أقسم الشهود أنهم رأوا داف فى ضوء القمر الساطع يضرب جيمس متزكار بطعنة فجلاء ، وكان الشاهد الرئيسى يدعى ألن ويعمل فى طلاء المنازل .

وكان لنكولن أكثر من « محام ماهر » في مثل هذه المناسبات . . لقد كان بارعاً . فعندما استمع إلى ما قيل ، التفت لنكولن إلى المحلفين وقال في قوة « سأريكم الآن أن قول هذا الرجل أن هوقة الكذب لأنه لم ير أرمسترونج يضرب متزكار بطعنة نجلاء ، ولم يشهد هذا القتال على ضوء القمر المكتمل ، لأن القمر لم يكن في السماء تلك الليلة . وبالتقويم الصحيح أثبت لنكولن صدقه إلى أكمل حدود الإقناع . لم يكن القمر مضيئاً خلال الساعة التي حدث فيها ذلك الحادث وكل هذه الضجة . . ولهذا فإن أن لم ير ما قاله من أنه رأى خلال « ضوء القمر الساطع » .

وحلل لنكولن للمحلفين بهدوء وعناية كل الدلائل التي أثبتت براعة موكله . واختتم مرافعته بكلام لم يستطع كل الحاضرين مقاومته . « أيها السادة . أقف أمامكم هنا دون انتظار لمكافأة ، لمصلحة هذه السيدة التي تجلس هناك ، وأشار لنكولن إلى حنا أرمسترونج والدة داف التي كانت تنتحب بقوة « التي غسلت قصاتي المتسخة عندما لم يكن لدى نقود لأدفعها لها » . وقص بعد ذلك فترة شبابه في نيو سالم وكيف أن والد ووالدة داف أرمسترونج كانا غاية في السكرم مع شاب مفلس تماماً احتاج يوماً ما إلى طعام ومأوى . وقال إنه يعتقد أن ابناً لهذين الوالدين لا يستطيع أن يرتكب جريمة ما .

وفاضت حنا أرمسترونج بالعواطف كأنكولن نفسه ، وجاء قرار المحلفين يقضى بأن داف برىء بعد تلك المرافعة القوية التي أداها لنكولن . وعندما سمعت القاعة « غير مذب » قال لنكولن : أنا أصلي لله لأن هذا الدرس قد يأتى في النهاية بدرس عظيم له وللجميع . . لكن جريمة التقويم AImanac Murder كانت مازالت تنتظر لنكولن بضع سنين أخرى وهو

يتنقل مع الدائرة القضائية في عام ١٨٥٠ تحت البرد والضباب والمطر والشمس .

درس لنكولن وفكر وثابر على استكمال شخصية رجل السياسة الذي لا ينسى. ذلك الرجل المحب للخير، بعينه العميقتين، وفكره الثاقب، رغم أنه لم يكن أنيق الملبس، ينطلقونه المرتفع الذي يصل إلى رقبة حذائه. ويبيجامة الصفراء المصنوعة من الفانلة، التي كان يرتديها في المنزل والحانات.

الفصل الحادي عشر

بيت منقسم





« فقدت اهتمامي في السياسة، ولكن نقض اتفاق ميسوري أعاد لي ذلك الاهتمام مرة أخرى » .

أ. لنكولن

كمن العداء بين الولايات الجنوبية التي كانت تعترف بنظام العبيد والولايات الشمالية التي منعت فيها تجارة الرقيق لأكثر من أربعين سنة قبل الحرب الأهلية . وكان هناك اتفاق يحفظ التوازن بين الولايات . ففي عام ١٨٢٠ كانت في الاتحاد اثنتان وعشرين ولاية - إحدى عشرة منها تبيع الرقيق ومثيلاتها تحرره . وعندما دخلت ولاية « مين » الاتحاد كانت تحرر الرقيق ، بينما دخلت ولاية ميسوري كولاية تبيحه .

وعلى كل حال فقد كان ( التعمد المقدس ) الذي بمقتضاه كان الجزء من لويزيانا المشتراة ، والتي لم تكن قد أصبحت ولاية بعد ، والذي يقع على خط ٣٠° ٣٦' قد منع فيه الرق نهائيا . كان هذا التعمد من أهم أسباب التهيئة ( لاتفاق ميسوري ) .

تقدم السناتور ستيفن أ . دجلاس في ١٨٥٤ إلى مجلس الشيوخ بمشروع من الأمة ، وزاد من حدة التوتر بين الشمال والجنوب وجاءت لائحة كنساس- نبراسكا لتنقض اتفاق ميسوري ، وثار من جديد السؤال المرير الذي يتساءل عن الحدود التي توضع لتحديد امتداد نظام العبيد .

تمت الموافقة على اقتراح دجلال في الكونغرس بعد شهور من الجلسات النارية وسمح لمواطني كنساس ونبراسكا وكلاهما شمال الخط المتفق عليه ليحددوا بأنفسهم رغبتهم لأن يكونوا إما ولايات حرة وإما ولايات مميحة للرق . وقد خاف الرجال أمثال لنكولن من انتشار الرق مرة أخرى واعتبرت اللائحة الجديدة نقضا ( للعهد المقدس ) بأن هذه المنطقة يجب أن تظل بلا رقيق إلى الأبد .

وسرعان ما أصبحت كنساس مسرحا لاصطدامات عنيفة بين رواد مشجعي الرق والداعين لتحريمه ، واندفعوا إلى الأراضي على ظهور الخيل والعربات مسلحين بالمسدسات والمدى الكبيرة ، وكل جانب يود أن يسيطر على الانتخابات التي ستقرر مصير العبيد تبعاً لشعور الأهالي .

ولكن قبل أن يبدأ السلب والقتال وإشعال الحرائق في ( كنساس الدائمة ) انتشرت حرب الخطابة حول اللائحة الجديدة في كل البلاد . ولم يستطع لنكولن أن يرى كل هذه المحاولات وكل هذا النضال حول مسألة حيوية دون الانضمام إليها بصوته ومنطقه . ورأى أن حزبه القديم ، حزب الهويج يتداعى ويتفرق بسبب هذا النزاع . ولاحظ أن هناك حزباً قوياً جديداً أسسه رجال أطلقوا على أنفسهم ( الجمهوريون ) يحرز كل يوم تقدماً في مقاومته انتشار موجة إباحة الرق .

أبطأ لنكولن في الانضمام إلى الجمهوريين « المتطرفين » ، لكنه كان أبداً في الهجوم على لائحة كنساس - نبراسكا .

وتقدم لنكولن إلى عضوية مجلس الشيوخ لكنه انهزم في ٨ فبراير عام ١٨٥٥ في المجلس التشريعي لولاية إلينوى . وفي العام التالي آمن بضرورة



انضمامه إلى الجمهوريين لإحساسه بوجوب مقاومة الرذيلة المتزايدة مقاومة فعالة . وفي ٢٩ مايو ١٩٥٦ لم يكن هناك أدنى شك حينما وقف لنكولن ليقول إن الأزمة كانت تحطم الأمة جميعها . ففي ذلك التاريخ وقف لنكولن في بلومنجتون ، عند إعلان ميلاد الحزب الجمهوري في إلينوى رسمياً والقي خطاباً مؤثراً إلى درجة أنه نوم مستمعيه مغنطيسياً . فقد نسي كل المستمعين وحتى مخبرو الصحف أن يسجلوا كلمة واحدة من ذلك الخطاب . ولقد أصبحت خطبته الحماسية هذه أشهر خطبه ، وهي التي عرفت بالخطبة الضائعة

#### Lost Speech

وكتب بيلي هيرندون فيما بعد ، وهو الذي جلس يستمع إلى لنكولن مذهولاً :

« لقد استمعت أو قرأت كل خطب المستر لنكولن العظيمة . وفي رأي أن خطبة بلومنجتون كانت أجل أعمال حياته . فإنه ببساطة طرح مشكلة الرق على بساط السياسة بأسلوب السياسى ، دون الإشارة إلى الحق الأبدى . هنا ولد لنكولن من جديد . كانت لديه الحمية لتحول جديد . لقد توقفت الشعلة التي خبا نارها . واشتعل في نفسه حماس لم يكن معهوداً فيه وبرقت عيناه بالإلهام » .

نحى هيرندون جانباً قلبه والورق الذي اعتاد أن يسجل عليه كلمات لنكولن « وعاش فقط في إلهام الساعة » . فقد أحس هو ومن معه بالنار والقوة والحياة تسرى فيهم إثر سماعهم خطاب لنكولن . ووجد الكلمات القوية الرنانة تخلق بصدق عميق فوقهم . « الصلب الثقيل الصعب والنتوء الذي يظاهاه السخط . . هو المشكلة . . كان أبراهام لنكولن يحمل بلا هوادة على العدو ، وكما قالها هيرندون بنفسه « لو كان طول مستر لنكولن

سنة أقدام وأربع بوصات ، ففي بلومنجتون ذلك اليوم كان طوله سبع أقدام ، بل ربما أكثر ، .

وبالرغم من عدم وجود نص مكتوب للخطبة ، فإن أنباء تأثيرها على الجمهوريين المجتمعين في إلينوى انتشرت شرقاً بسرعة . وبعد ثلاثة أسابيع عندما انعقد المؤتمر الوطني للجمهوريين في فيلادلفيا لاختيار قائمة رئاستهم الأولى حصل لنكولن على ١١٠ صوتاً كمرشح الحزب لنائب الرئيس . وكان حظه كبيراً ليصبح نائباً للرئيس المختار جون فريمونت . وفي الانتخابات التي تلت هذا حذف اسم لنكولن ورشح بدلاً عنه ويليام ل. دايتون في نيو جرسي .

عندما سمع لنكولن بقصة الـ ١١٠ صوتاً قال في ذهول وتأفف « أظن أنني لم أكن المقصود . لعل في ماسوشيتس رجلاً عظيماً آخر يدعى لنكولن وأظن أنه هو ... » وكان من حسن حظ لنكولن أنه لم يكن المرشح لأول قائمة ضعيفة للجمهوريين . بل إنه من حسن حظه مرة أخرى - في تاريخه البعيد - أن فريمونت هزم أمام المرشح الديمقراطي جيمس بوكنان ، وكان الجنوب يهدد بإشعال نار الحرب الأهلية الأمريكية في حالة وصول فريمونت إلى البيت الأبيض . وقد يعنى هذا أموراً خطيرة للأمة ، لأنه في عام ١٨٥٠ لم يكن الشمال موحداً وكفوا المقاومة تلك الحرب .

وبعد يومين فقط من انتخاب بوكنان للرئاسة ، تقدمت محكمة الولايات المتحدة العليا تحت رئاسة روجر تاني بقرار يقضى بأن الزنجى « بعيد جداً عن مستوى الرجل الأبيض حتى يعتبر مواطناً في محكمة تطبق القانون .. » . وقد أثار هذا العناصر المناهضة للرق في الشمال وازدادت حرارة الحرب الباردة بين المعسكرين المتنافرين .

وكان سباق لنكولن عام ١٨٥٨ للوصول إلى مجلس الشيوخ أكبر مجهوداته خلال الأعوام الأربعة الأخيرة . وكان السناتور دجلاس ، وقد قاربت مدته الثانية على الانتهاء خصمه المرتقب . والحقيقة أن لنكولن كان يواجه خصماً مشهوراً وقوياً مما جعل المعركة بينهما حامية الوطيس .

وقبل ترشيح لنكولن في المؤتمر العام للجمهوريين في سبرنجفيلد في ١٦ يونية ١٨٥٨ ، ألقى لنكولن خطاباً آملاً فيه أن يظل في ذاكرة الجميع إن كانت كل أعماله قد انمحت . وقد كانت خطبته (بيت منقسم) House Divided صريحة إلى أبعد الحدود وجريئة بحيث جعلت كل أصدقائه ، عدا هيرندون ، يتوسلون إليه ألا يلقبها . وقال له هيرندون كأنه يتكهن بالمستقبل ... « لنكولن . ألق هذه الخطبة تجمعك رئيساً » .

وها هي بعض كلمات ذلك الخطاب الذي ما زال يرن كأنه ناقوس صارم ... « لا يمكن أن يقف بيت منقسم على نفسه . أنا أعتقد أن هذه الحكومة لا تطيق أن تبقى نصف الأمة عبيداً والنصف الآخر حراً . أنا لا أتوقع أن ينحل هذا الاتحاد ولا أتوقع أن يسقط هذا البيت . ولكنني أتوقع أن ينتهي هذا الانقسام . »

وبينما أمدت هذه الكلمات كثيرين في الشمال بالشجاعة ، حركت هذه الكلمات نفسها الغضب العميق في الجنوب والتفوا حول ستيفن أ. دجلاس . كمحاولة لإثبات أن لنكولن رغب في إثارة حرب أهلية . وقام دجلاس . وهو السياسي المخنك فلم يطالب بأكثر مما طالب به لنكولن . وعرف أنه لا بد من تكريس كل الجهود لهزيمة خصمه الطويل ذى الأطراف الطويلة لأنه لم يكن هو الذى يبخس خصمه حقه . وعندما سمع دجلاس بترشيح لنكولن لعضوية مجلس الشيوخ قال إن لنكولن من بين كل أعضاء حزب « الهويج » سبرنجفيلد « هو أحسنهم وأكثرهم أمانة » .

عندما عاد دجلاس إلى إلينوى لتعيد الولاية انتخابه، كانت رحلته رائعة. كان رجلاً غنياً مفرط الذكاء قليل الحجم، يسافر من بلدة إلى أخرى عادة في عربة خاصة من عربات السكة الحديد تصحبه زوجته الثانية أميل كاتس دجلاس الرائعة الحسن، الذي كان ملبسها الرشيق حديث عاصمة الأمة كلها. وعلى إحدى عربات القطار المسطحة وضع مدفع براق من النحاس اللماع يقف عليه حراس في زيهم الرسمي. وعندما كان القطار يشرف على مدخل إحدى المدن ينطلق هذا المدفع يعلن للمواطنين أن ستيفن أ. دوجلان العظيم سيلقي خطاباً. وكان أبراهام لنكولن يشعره المشعث يركب في إحدى عربات الركاب بنفس القطار. فلم يكن عنده لا المال ولا الرغبة في منافسة خصمه في هذه المظاهرة. وكان لدى كل من المرشحين نوع خاص من الجاذبية، ولكن يقال إن لنكولن أوضح «أنك تستطيع أن تسخر من كل الناس بعض الوقت. ومن بعض الناس كل الوقت. لكنك لا تستطيع أن تسخر من كل الناس كل الوقت...».

تبع لنكولن السناتور دجلاس من مدينة إلى أخرى أول الأمر، وكان يلقي خطبه عندما يدعى إليها أو يخطب وحده في المجتمعين. وبداله أنه قد يكون عملياً أكثر إذا شارك منافسه نفس المنصة. وتمحى لنكولن منافسه في عدة مناسبات. ولم يجد دجلاس مفراً من تحديه بعد أن وجد خسارته المحتملة بدت أكثر من مكسبه.

هذا ما حدث في سبع مدن من ولاية إلينوى هي أوتارا - فريبورت - جونسبورو - شارلستون - جالهورج - كوينسي، وهي المدن التي سعدت ببعض وقفات التاريخ الأمريكي المشرقة.

جاءت الحشود بالقوارب وعربات تجرها الثيران والخيول والعربات

- ١٣٤٠ -

الصغيرة والقطارات الخاصة ، بل على الأقدام ، ورأوا مواكب الشعل والفرق الموسيقية وباقات حسناً من الفتيات الجميلات .. وحلقت الأعلام فوق رؤوسهم وسمعوا الهتافات والشعارات، وأكلوا وشربوا أطيب الطعام . وقفوا تحت الشمس المحرقة في أوتواوا . وتحت رذاذ المطر العنيف في فريبورت .. وفي طقس جالسبورج اللطيف . جاءوا وذهبوا وتمتعوا وتضايقوا وسروا وضحكوا واستمعوا ثم سروا مرة أخرى . لم يكن هناك شخص ما يستطيع أن يقدم لها عرضاً أكثر تشويقاً من هذا .

كان دجلال لبناً ، يلبس عادة سترة زرقاء أو بيضاء وقيصاً رعاشاً وصديرياً قصيراً مع بنطلون أحسنت حياكته ليناسبه تماماً وحذاءه يبرق من اللمعان . كان وفير المعرفة ، غنياً مناقشاً فصيحاً واثقاً من نفسه مكبراً كالثعلب .. كسبجان السمك ناعم الملمس سريع الانزلاق من المآزق . أما لنكولن الذي كان يعلو بمقدار إحدى عشرة بوصة كاملة على دجلال القصير القامة ، فكان يلبس سترة الداكنة السوداء بأكمامها القصيرة التي لا تصل إلى رصغيه ، وقيصاً يبدو عليه القدم ، وربطة عنق دائمة الاعوجاج . وكان دائماً يضع شالا رمادياً قديماً ويمسك بمظلة منتفخة . ولكن عندما كان أحدهما يبدأ الكلام كانت الآلاف الملتفة حول المنصة تنسى مظهرهما الخارجى بل حتى تنسى أنفسهما . . فإن اثنين من أعظم المناقشين في عصرهم يعملان فوق ما في طاقة عقليهما ليفوز أحدهما بثقة المستمعين .

وإذا كان دجلال ثعلباً ، فإن لنكولن كان بحق هو صائد الثعلب . فلقد سأل لنكولن في فريبورت سؤالاً وضع بمهارة فائقة .. سأل دجلال كيف يستطيع شعب أية أمة قانونياً أن يمنع الرق قبل وضع دستور للدولة ؟ . وكان لنكولن يعرف الإجابة المنتظرة من دجلال . وعرف أنها كفيـلة





ياسقاطه إن لم يكن في هذه الانتخابات ، فعلى الأقل في الانتخابات الأكثر أهمية عام ١٨٦٠ .

وأجاب دوجلاس بفصاحة أن أية أرض تود تحرير عبيدها تستطيع هذا بإقرار قوانين لاتحجز هذا النظام . وخرجت آهات الاستحسان تعقيباً على هذا الرد الذى بدا بارعاً لكن لنكون أيقن أنه كسب صراعاً هاماً يعرفه هو ، فلقد أصبحت تلك الإجابة تعرف فيما بعد « بمشروع فريبورغ » الذى أنزل قيمة الديموقراطيين الجنوبيين وأفقد دجلاس نحو ثلث مؤيديه السياسيين . وأطاح بالديموقراطيين وجعل انتصار الجمهوريين عام ١٨٦٠ قريب التحقيق والمنال .

قام مراسلو الصحف في كل الاجتماعات السبع بتدوين النصوص الحرفية . بالاختزال لكل كلمة قيلت . وعلى هذا فلم يكن المستمعون وحدهم هم المتابعين . لكل كلمة قيلت ، بل كذلك القراء في كل أنحاء الولايات المتحدة استطاعوا تتبعها عن طريق الصحف . وفي ليلة واحدة أصبح لنكون شهيراً معترفاً به كسياسي وطني .

وبعد تلك الساعات المضيفة فوق المنصة ، عندما استطاع لنكون خلع ربطة عنقه وحذاءه في غرفته بالفندق ، كانت عدة خواطر مختلفة تنتابه عندما يجلس وحيداً غارقاً في لجج من أفكاره . وقد تحدث إلى لنكون في إحدى الأمسيات — بكونسنسى — الكاتب الساخر دافيد ر. لوك المعروف باسمه الصحفي بتروليام ف. ناسبي ، وقال له « لم أر في حياتي وجهاً يعالوه التفكير ، ولا وجهاً معبراً ، ولا وجهاً أشد حزناً من هذا الوجه . . . » .

وقص لنكون على لوك أنه يأمل أن يحمل الولاية على أن تدلى بأصواتها ، لكنه لا يتوقع أن يهزم دجلاس في مجلس الولاية التشريعي ( وهو الذى

كان ينتخب الشيوخ في تلك الأيام). وشرح للوك أن عدة مراكز انتخابية .  
ضمت للدائرة بطريقة ماكره وأن تلك مناورة غير عادلة لترجيح كفة  
خصومه الديمقراطيين .

وأثبت لنكولن مرة أخرى صدق تنبؤاته . فعندما اجتمع المواطنون  
في يوم ٢ نوفمبر ١٨٥٨ المطير للاقتراع ، حصل لنكولن على ١٢٥,٢٧٥  
صوتاً مقابل ١٢١,٠٩٠ صوتاً لدجلاس . لكن المجلس التشريعي أعطى  
دجلاس ٥٤ صوتاً مقابل ٤٦ صوتاً لنكولن عند انتخابه لعضوية مجلس الشيوخ .  
وعندما سئل عن شعوره بعد سقوطه في الانتخابات ، قص لنكولن  
حكاية الصبي العارى القدمين الذى اصطدم فى أصبع قدمه . « وكانت الصدمة  
تؤلمه بشدة إلى درجة لا يمكنه معها الضحك وفى نفس الوقت كان كبيراً  
على الصراخ » .

وعلى الرغم من سوء حظهِ الجديد فإن لنكولن ظل عنصراً ذا أهمية  
بالنسبة للمواطنين في البلاد . وخلال العام والنصف التالية حاول استعادة  
أعماله القانونية التى أهملها رغباً عنه خلال عام ١٨٥٨ . وظل يلقى بخطبه التى  
لم تكن سياسية دائماً . وبالرغم من أن اسمه كان يذكر للرئاسة فإنه كان نافراً  
حتى بالنسبة للحلم بأى منصب عال . وقد أجاب لنكولن على رؤساء تحرير  
الصحف الذى كان يمدى استعدادده لمساندته بكل قوته « يجب أن أعتزف بأننى  
لا أظن فى نفسى الكفاءة لأصبح رئيساً .. » .

وتغيرت نظرته للموضوع ببطء فى خريف ١٨٥٩ . ففي خطاب بعث  
به إلى ليمان تروميل فى ٢٩ إبريل ١٨٦٠ عرض لنكولن آماله الكبار فقال  
« إن طعمها فى فمى بعض الشيء » وطلب من تروميل أن لا يدع عيناً أخرى  
ترى ما خطه إليه .

ولقد كان هذا التغير في قلبه وآماله بلا شك راجعاً إلى الاستقبال الرائع الذي قوبلت به خطبة لنكولن في اتحاد منتجي النحاس بمدينة نيويورك، والتصفيق الحاد الذي جاء، كتحية لزيارته غير المرسومة والتي لم يعد لها في نيو إنجلند. وكان لنكولن يحلل إمكانيات بقية الزعماء الجمهوريين في ترشيحات الرئاسة ويمجد بعض فقط الضعف في حظ كل منهم في النجاح. فقد كان ويليام هـ. سيوارد من نيويورك، وسالمون بشين من أوهايو، وسيمون كامبيرون من بنسلفانيا، واثنين من كبار رجال القضاء، جون ماكين، القاضي بالمحكمة العليا للولايات المتحدة من أوهايو، وإدوارد باتس من ميسوري، أكثر زعماء الجمهوريين احتمالاً لاختيار أحدهم كمرشح للرئاسة. لكن كل منهم حتى ويليام هـ. سيوارد، أكثرهم شعبية، كانوا إما يفتقدون التأيد في بعض المناطق الشمالية وإما أغضبوا الناخبين بتصريحات متطرفة.

ولقد ازداد التأيد الشعبي للنكولن لموقفه المعارض من الرق وبالرغم من هم غير المبنية على أساس فلم يكن لنكولن يود تحطيم الاتحاد بسبب مشكلة الرق، فهو لم يكن أبداً من المخربين. وقد أمده عقله الشارد بإحساس أن حظه سيكون أحسن قطعاً في المؤتمر الوطني للجمهوريين. ولم يكن هناك شك انه «الابن المفضل» في ولايته. وقد ثبت هذا فعلاً في مؤتمر إلينوى الجمهوري في ديكاتور، عندما نال لنكولن جميع الأصوات الانتخابية. وقد جاءت اللحظة الحاسمة لهذا التجمع عندما سار جون هانكس ومعه صديق يحملان قضيتين يرمزان إلى أن أبراهام قد شقهما منذ ثلاثين سنة، عندما أتي إلى بلدة ما كون التي ذهب إليها المندوبون بجنون مزج بالفرح، وبدانكولن «شاقق القضب» كانه الوحيد المحتمل الذي سيجمع الأصوات.

وعندما جاء الجمهوريون يتدفقون إلى شيكاغو لحضور مؤتمر الوطني في ١٦ مايو ١٨٦٠ بلغت الإثارة قمته، وقد أحضر بعض المندوبين كسيوارد

فرقاً موسيقية في زى موحد . وتجمع أنصار أبراهام لنكولن من كل صوب  
وحذب وساروا في شارع ميتشجان محدثين ضجة تفوق تلك التي تحدثها فرقة  
سيوارد الموسيقية . وارتدوا قبعات وقلنسوات حديدية تهرق في ضوء الشمس  
نهاراً وتلعب في الليل على ضوء المشاعل التي كانوا يحملونها والتي تشتعل  
بالكبروسين .

وبينما كان الغناء والعزف يسيران بعنف أمام بحيرة شيكاغو كانت  
المشروعات الخطيرة ترسم في حجرات الفندق المليئة بالدخان للحصول على  
النصر بكل أنواع الحيل المشروعة أو غيرها . وكان من بين أهم منظمي الحملات  
الانتخابية تارلو ويد ، زعيم نيويورك السياسي يكافح من أجل سيوارد ،  
وسيمون كاميرن زعيم بنسلفانيا السياسي يقاتل من أجل نفسه .

اختار لنكولن أن يبقى في سبرنجفيلد لكن منظمي معركته وعلى رأسهم  
القاضي العظيم دافيد دافيز ، الذي لف دائرة محكمة الولاية مع لنكولن ، كانوا  
مشغولين تماماً كانشغال المنافسين الآخرين .

وقد أرسل لنكولن برسالة إلى منظميه . « لا ترتبطوا بعقود تقيدين » .

وانتظر لنكولن الآمين بصبر في سبرنجفيلد . ولعله لم يكن يعلم بما يدبره  
أصدقاؤه لمصلحته ، فقد عقدت الاتفاقات وبينها وعود هامة بالمناصب  
الوزارية في الحكومة الجديدة . لكن الخير جاء عن طريق هذه المناورات  
السياسية . وقدر المواطنون الأمريكيون الخسارة التي سوف تصيبهم إذا  
خسر لنكولن . وكانت أصعب دورة جرت في تاريخ البلاد لاختيار  
رئيس أمريكي .

تركزت أهمية المندوبين بعد هذا على المبنى الخشبي الواسع الذى أقيم فى سرعة من أجل المؤتمر . وأحيط من كل جوانبه بالضجة المعتادة التى تشهدها كل المؤتمرات السياسية ، وألقيت خطب الترشيح وهى قصيرة فى تلك الأيام . وفى وقت قصير دخل المندوبون للإدلاء بأصواتهم .

جرت الجولة الأولى . . . وحصل سيوارد على ١٧٣ صوتاً مقابل ١٠٢ للنكولن . بينما حصل كامرون على ٥٠١ صوتاً ، وشين على ٤٩ صوتاً ، وباتس ٤٨ صوتاً . . . فى حين ذهبت أصوات ٤٣ مندوباً إلى بعض المرشحين الآخرين . . .

وسمع النداء « ادعوا للانتخاب » ادعوا للانتخاب . . . . .  
وبدأت الجولة الثانية ، وحصل لنكولن على ١٨١ صوتاً لكن سيوارد ظل يتقدمه بثلاثة أصوات ونصف .

وعاد نداء « ادعوا للانتخاب » ادعوا للانتخاب . . . . . يدوى من جديد فى المندوبين .

كانت الأصوات الكفيلة بقبول الترشيح لا تتعدى ٢٣٣ صوتاً . وفى الجولة الثالثة قفز لنكولن ليصل إلى ٢٣١ صوتاً . وكان فى حاجة إلى صوت ونصف ليحز النصر . . .

وقفز مندوب أوهايو واقفاً . . . « أنا أقف (هه) ياسيدى الرئيس (هه) لأعلن تغيير أصوات أوهايو الأربعة من مستر شين إلى مستر لنكولن . . . » .

وحدثت ضجة كبرى فى الجمع عندما فرح المندوبون وصفروا ولوحوا بقبعاتهم فى الهواء . . . . . وأعطيت إشارة لرجل كان ينتظر على سطح القاعة فشد حبلاً صغيراً فانطلق مدفع النصر يدوى فى الفضاء .

وفي مكتب جريدة (إلينوى ستيت جورنال) في سبرينجفيلد ، كان  
لنكولن وبعض أصدقائه ينتظرون بأقصى ما يمكن التمسك به من حدود  
الصبر . . . وفجأة وصلت البرقية . . . « لقد نجحنا . النصر من عند الله . . . » .

وعندما رقص جيرانه المخلصون من الفرح وغنوا وتواثبوا ، قال  
لنكولن بهدوء . . . « أيها السادة . . . حسن جداً : هناك في منزلنا سيدة  
صغيرة قد تكون أشد اهتماماً بكل هذا الموضوع مني أنا شخصياً . وإذا  
عذرتوني . . . فسأحمل إليها هذه البرقية لنراها . . . » .

لا يمكن لإنسان أن يتنبأ بنتيجة مائة في المائة . وبدا حظ الجمهوريون  
ممتازاً بعد أن انشق الحزب الديمقراطي ( وبعض الفضل يرجع إلى المناورة  
الماكراة التي قام بها لنكولن في فريمورت ) . كان ستيفن أ . دجلاس مرشح  
الديموقراطيين الشماليين . وكان جون ك . بركينز يدج مرشح الديموقراطيين  
الجنوبيين ، ولم يقلق أحد بشأن جون بيل الذي ساندته حزب سمي نفسه  
الاتحاد الدستوري .

وعندما أشرق فجر يوم الانتخاب التاريخي في ٦ نوفمبر ١٨٦٠ والجنوبيون  
يهددون بحرب أهلية ، اندفع المواطنون إلى صناديق الانتخابات والجو  
مشحون بالانفعال والإثارة ، والكل يحس أن أكثر من انتخاب يلوح  
في الأفق .

فاز لنكولن . صحيح أنه لم يفز بأغلبية كبيرة ، لكن بعدد كبير من  
الأصوات . وكانت نتيجة الانتخابات النهائية ١٨٦٦٤٥٢ صوتاً للنكولن ،  
و ١٨٣٧٦٠٩٥٧٩ لدجلاس ، و ٨٤٩٧٨١١ لبريكنز يدج ، و ٥٨٨٨٧٩ ليل .  
وانتصر لنكولن بعد كفاح مرير بينه وبين دجلاس .

أنبت أبراهام لنكولن الذي ولد في كوخ خشبي أن أمريكا فعلا هي بلد

الفرصة السانحة . وعلى مرمى البصر أمام لنكولن كانت ترقد المسئوليات .  
التي لم يحملها إلا بضعة رجال على أكتافهم . وعلى لنكولن أن ينمي عقله  
وقلبه بل روحه أيضاً ليكون أهلاً لهذا الحمل . وعلى مرمى بصره كان المجد ،  
وهو الذي كان سيصبح زعيماً لكل بني وطنه ، وفي نفس الوقت كانت  
المأساة التي قسمت قلوبهم بسبب الحرب الأهلية . كان هو الرئيس الجديد  
للولايات المتحدة الأمريكية . وأصبح مما لاشك فيه أن ماري لنكولن  
قد نالت كل ما تمتته وأصبحت سيدة البيت الأبيض . . السيدة الأولى  
في البلاد .



## الفصل الثاني عشر لاحقاً نحو أحد



« أنا أعلن لكم وداع الحب .. »

أ. انكرلى

حزم لنكون حقايبه بنفسه وعنونها الى « أ. لنكون — البيت الأبيض — واشنطن » ، وأجر محل إقامته في سبرنجفيلد وقام بآخر زيارة لزوجته أبيه الحبيبة ساره بوش لنكون . وكان عليه أن يخبر بيلى هيرندون أن يترك عملهما المشترك كما هودون تغيير . . « فعندما أتركك الآن أشعر إننى سأعود يوماً ما .. أو لا أعود على الإطلاق . . ويوم أعود سنمضى سوياً فى ممارسة القانون كأن شيئاً لم يحدث من قبل . . » .

كانت تلك هى تفاصيل حياته العادية عند رحيله . لكن فى الدقائق القليلة التى خلا لنكون فيها لنفسه أحس أن البلاد تكاد تتردى على شفى حرب أهلية ، رغم أنه حاول أن ينكر هذا بينه وبين نفسه . وصلى الرئيس المنتخب بكل حواسه لينع الأضرار الجسيمة وإراقة بحور الدماء التى قد يمكن تجنبها بمجهود كريم وكبير .

وفى صباح ١١ فبراير ١٨٦١ ، وكان اليوم هطيراً ، سار مع مودعيه فى طريق محطة سكة حديد الغرب الكبير حيث كانت فى انتظاره قاطرة صغيرة يلحق بها عربة عفش وعربة تدخين وعربة ركاب ، كانت كلها تكون القطار الخاص للرئيس .

- ١٤٦ -

وعندما وقف لنكون على المنصة الخلفية وأمامه صفوف متراسة كالأمواج من المظلات والوجوه تتطلع إليه . . تحدث إلى الجموع قائلاً في هدوء :

« أصدقائي . لا يمكن لأحد إلا في موقفى هذا أن يقدر شعور الحزن العميق لفراق هذا المكان ولهؤلاء الناس برقتهم وعطفهم . أنا مدين لكم بكل شيء . فلقد عشت هنا بين ظهرانيكم ربع قرن ، وخطوت سنى العمر من الشباب إلى السكولة . هنا ولد أبنائى وهنا وورى أحدهم التراب . لست أدرى متى أعود وقد لا أعود أبداً . وأنا أغادركم اليوم وعلى عاتق مهمة أكبر من تلك التى تحملها واشنطن نفسه . وبدون معونة الله لا أستطيع أن أنجح . وبمعونة الله لن أفشل . وبثقتى فيه وبتأييده لى وأنتم معى ، وكلنا نعمل من أجل الخير . . دعونا جميعاً نأمل باخلاص أن كل شيء سيكون على مايرام . وبغناية الله التى تحكمكم وبصلاتكم ودعواتكم من أجلى ، أعلن لكم وداع الحب . »

ودوى صفير القاطرة الصغيرة ، ودق ناقوس المحطة واختفى القطار ببطء متجهاً إلى العاصمة البعيدة التى ترقد فى قلب أمة متعبة .

وفى كتاب يتناول حياة لنكون فى ولايات الغرب الأوسط ، قد يبدو غريباً أن نشير إلى ما حدث أثناء رئاسته . ولكن كيف يستطيع المرء أن يصور تاريخه بكل معانيه دون هذه الإشارة ؟

وكما رأينا فإن لنكون عرف بطيبته المتناهية وكرمه للعنف والظلم والحرب . ولكن الحرب أصبحت مسألة حتمية . فبعد أن انطلقت مدافع

الاتحاديين على « فورت سامتر » ، تجمعت جيوش الشمال والجنوب المتخاصمة تحت قيادة جنرالاتها ، لتبدأ المأساة الدامية التي استمرت أعواماً أربعة .

اختلف تفاوت متطوعي القسمين المتنازعين في المثالية والشجاعة . متوسط الوزن الطول .. لون الشعر والبشرة والعيون .. حب أسرهم وبلدهم. تركوا خلفهم أمهات تنتحب وآباء غخورين . وفتيات تربطهم بهن علاقات حب .. وبالحمية التي قذفت بالملتحين من الرجال وأولئك الذين لم تنبت لهم الحى بعد ، وهم من الشباب الغض الذين كان أولى بهم أن يربطوا الشمال بالجنوب ، دخلوا في صراع مليء بالغضب ، وفي بعض الأوقات تفاخر البعض بشجاعة هؤلاء عندما قاتل بعضهم البعض .

ودوى صوت المدافع الكبيرة تقذف بالحم لتدخل في صدور المتقدمين من الجيشين ذوى اللونين الأزرق والرمادى . ومن خلف المتاريس المصنوعة من الحجارة أو في الخنادق جاءت أصوات البنادق وسقط الرجال وفي قلوبهم طعنات السونكى تقتلهم أو تدنيهم من الموت فيحملون إلى الصفوف الخلفية .

وجاء أعضاء الكونجرس وعقيلاتهم ليشهدوا المعركة الأولى في بول رن وكأنهم في نزهة ، متعة ولكن عندما وقف الجنرال جاكسون الجنوبي كالحائط المتين البنيان ، وعندما بدأت قوات الاتحاد المتقدمة تتراجع اضطر هؤلاء السادة وعقيلاتهم إلى البحث عن أسرع الطرق للهروب عائدين إلى واشنطن . واكتشفت الأمة أن الحرب لم تكن مجرد نزهة لطيفة .

وكان هناك بعض الغرور في كلا الجانبين سنة ١٨٦٢ ، نخلال حملة بيننسلار ، كان القتال في وادى شيناندوه يدور عنيفاً والدم يسيل بغزارة كما حدث في معارك بول رن الثانية وانتيتام وفريدركسبورج . وكانت الخسائر فادحة .

وفي عام ١٨٦٣ بدأت الحلقة تدور مرة أخرى لتقترب من الاتحادية . وأعلن لنكولن أن العبيد « من الآن وإلى الأبد أحرار » . وسقطت فيكسبورج في أيدي قوات الاتحاد بعد فترة طويلة ورغم القتال البطولي الذي قاتلته قوات لي ، فقد حوصرت من الخلف في جيتسبورج .

وبعد أن حاول لنكولن أن يجد قائداً في ماكدويل وماك كلين ويرنيسيد وهو كروميد ، وجد أخيراً هذا القائد في الجنرال يوليسيس س. جرانت . وخلال عام ١٨٦٤ قاتل هذا الجنرال مدخن السيجار وشارب الويسكي الكبير ، قاتل بقسوة في وايلدرنس ، وفي سبوتسلفانيا كورت هاوس ، وفي كولد هاربور ، وحول ريتشموند وبترسبورج ، قبل البدء في رحلته الطويلة إلى عاصمة الاتحاد . وفي نفس الوقت كان شيرمان يقطع الطريق خلال جورجيا حتى وصل إلى البحر .

ومن بين العواصف التي أثارها المدافع كان هناك صوت حكيم يسمع بين كل حين وحين . كان صوت لنكولن يحاول جاهداً أن يهديء الحقد أثناء القتال والمعارك .

قال الصوت العظيم .

« بمنح الحرية للعبيد ، نحن نؤمن حرية الأحرار » .

وقال مرة أخرى ..

« منذ سبعة وثمانين عاماً ولد آباؤنا على هذه القارة ، وولدت أمة جديدة تنعم بالحرية وتؤمن بالحقيقة التي تقول إن كل الناس ولدوا متساوين . والآن دخلنا في حرب أهلية كبيرة لم تشهدها هذه الأمة ولا أية أمة أخرى ولا يمكن أن نحتلمها » .

وأخيراً وقبل أن يسكت هذا الصوت إلى الأبد بما يزيد قليلاً على شهر واحد، جاءت كلمات خالدة لم تصدر عن أى رئيس حكومة فى أزمة كبيرة تواجهه كتلك اللازمة.

« بلا حقد نحو أحد . وبالإحسان إلى الجميع . وبإصرار على الحق كما أمرتنا السماء أن نرعى هذا الحق . دعونا نندفع بكل طاقاتنا لنهسى العمل الذى تردينا فيه ، لنضمد جراح هذه الأمة ، ولنعتنى بذلك الذى حمل عبء هذه المعارك ، وبأرملته والأيتام الذين خلفهم . لنعمل كل ما فى وسعنا لتحقيق وإحياء الحق ، وخلق سلام دائم يسود بين ظهرائنا ومع كل أمم العالم » .

وعندما أعلن لنكون ميثاق الرحمة هذا فى خطابه الافتتاحى الثانى فى ذلك اليوم العنيف الممطر يوم ٤ مارس ١٨٦٥ ، خرجت الشمس من خدرها وسطع ضوءها مباشرة ليسقط عليه . وكان هذا علامة خير عند بعض المستمعين وأحسوا بأن السحب القائمة التى ظلمت الحرب قد انقشعت وخرج منها نور الأمل يشع على أمة مجاهدة متفرقة .

وأخيراً عندما أجبر روبرت أ . لى وفلول قواته - وهى تعاني قلة الطعام والمعدات الطبية والذخيرة - على التسليم ليوليسيس جرانى فى أبوماتاكس كورت هاوس فى التاسع من إبريل ١٨٦٥ أنقذ الاتحاد ، ولكن . . . بعد دفع الثمن الباهظ . فقد اهتز الشمال تأسفاً على الحالة بعد الحرب ، لكن الفرح سرى عبر المزارع إلى القرى والمدن . وحتى فى الجنوب بالرغم من مرارة الهزيمة كان هناك نوع معين من السعادة بالخلاص من الألم بانهاء الحرب . لم يستطع الرئيس لنكون أن يشهد وقف إطلاق النار ، فقد سقط قتيلاً برصاصة أحد المقاتلين فى مسرح فورد بواشنطن ، عندما كان يجلس

—١٥٠—

مع زوجته في مقصورة يشاهدان مسرحية ( ابن عمنا الأمريكي ) . أطلقت الرصاصة من غدارة نحاسية تزن ثمانى أوقيات كانت بيد الممثل المهوريس جون ويلكس بوث نختمت حياة الصبي الذى ارتفع من الفقر والجهل والامية ، ليصبح واحداً من أكبر ومن أشهر وأكثر الزعماء الذين عرفهم العالم رحمة . لو عاش لنكون لكان من المحتمل أن ينقذ بلده من كثير من المراتبة التى لازمت سنى التعمير . لأنه من المؤكد أنه كان سيرفض الانتقام من الجنوب المنهزم : لقد أراد أن « يعيد تضييد جروح الأمة » . وكانت خسارته هى خسارة أى مواطن شاملى أو جنوبى من أى سلالة ، أو من أى لون . وبموته فجع الجميع فى وفاته وفقدوا مصلحاً عظيماً كان « لا يحمل الحقد لأحد مع الإحسان للجميع » .

وكما قال لنكون عندما غادر سبرنجفيلد ، لم يكن يعرف متى يعود وقد لا يعود أبداً . وراح قطار لفه الحزن يمز خلال المدن والبلاد والقرى حيث بكاه الآلاف الذين وقفوا خلال أيام شهر إبريل ولياليه ، ليقدّموا الوداع الأخير لأبراهام لنكون الذى عاد لبلده إلينوى لينام هناك حتى يوم الحساب .

وستظل ذكراه دائماً أبداً كلما تفتح زهر الزنبق فى شهر إبريل من كل عام .



مطبعة المعارف  
ت ٢٢٩٩٠







الناشر  
عالم الكتب